

على قدر أهل العزم

بقلم : الحبيب الدريدي

إِنْ عِظَامَ الْحَوَادِثِ مِيسَمُ عِظَامِ الشُّعُوبِ ، لَأَنَّ الْوَقَائِعَ الْمُهِيبةَ
وَالْفَعَائِلَ الْهَائِلَةَ وَالْمَلَمَاتِ الْخَطِيرةَ لَا يَنْهَضُ لَهَا إِلَّا شَعْبٌ ذُو سَوْرَةٍ
وَيَأْسٍ وَشِدَّةٍ وَلَا يَقُولُهَا إِلَّا قَوْمٌ أُولُوا جَاشٍ وَعِزِّمْ وَسَطْوَةٍ . وَإِنْ
عِظَامَ الْحَوَادِثِ مِيسَمُ عِظَامِ الشُّعُوبِ لَأَنَّ مِنْ شَأْنِ كُلِّ حَدَثٍ جَلَلٍ
أَنْ يُعْفَى عَمَّا كَانَ يَشِينُ حَيَاةَ الْأُمَّةِ مِنْ بَغْيِ الْعَادَاتِ وَهَجِينِ
الْأَعْرَافِ وَفَاسِدِ السُّنَنِ وَالثَّقَالِيدِ وَيَمُحُو مَا كَانَ يَعْتَوِرُهَا مِنْ نَهْجٍ
فِي التَّفَكُّيرِ عَقِيمٍ وَمَسَلِكٍ فِي التَّجْدِيدِ مَقْتَدِمٍ ، وَيُؤْذِنُ لِقَاءَ ذَلِكَ
بِبُرْدُغٍ جَدِيدٍ الْقِيمِ وَأَصِيلِهَا وَسَيِّدِ الْفِكْرِ وَقَوِيمِهَا . وَلِذَلِكَ احْتَفَتِ
الْأُمَّةُ بِحَوَادِثِهَا الْعِظَامِ فَاسْرَفَتْ فِي الْإِحْتِفَاءِ وَبَاهَتْ بِوَقَائِعِهَا
الْكِبَارِ فَأَمَعَتْ فِي التَّبَاهِي .

* * * *

وَقَدْ كَانَتْ الْأَرْضُ التُّونُسِيَّةُ مِنْذُ الدَّهْوَرِ قَبْلَ الدَّهْوَرِ مَهْدَ
الْأَحْدَاثِ الْخَالِدَةِ وَمَوْطِنَ الْأَعْمَالِ الْمَجِيدَةِ الرَّائِدَةِ يَتَرَدَّدُ صَدَاهَا فِي
الْمُتَوَسِّطِ كُلِّهِ وَتَغْيِيهِ ظِلَالُهَا عَلَى الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ . وَظَلَّتْ هَذِهِ
الْأَرْضُ وَفِيَّهَا لَعْنُهَا مُسْتَمْسِكَةٌ بِمِيثَاقِهَا ، كُلَّمَا انْحَرَفَ فِيهَا
قِسْطُ الْحَقِّ أَوْ زَاغَ مِيزَانُ الصَّدْقِ إِلَّا وَأَنْهَضَتْ مَنْ يَفْضُبُ
لِلْحَقِيقَةِ قِيرْفَعَ رَأْيَتَهَا وَيُظْهِرُ آيَتَهَا :

* * * *

أَلَمْ يَنْقُذِ أَمِيلَكَارُ قَرْطَاجَ بَعْدَ انْحِبَارِهَا فِي أَغْقَابِ الْحَرْبِ الْبُونِيَّةِ

الأولى ؟ ثُمَّ أَلَمْ يُنْظَمْ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ وَلَايَةَ إِفْرِيقِيَّةَ بَعْدَ ثَلَاثِينَ
عَامًا مِنَ الْقَلَاقِلِ وَالْفَوْضَى ؟ ثُمَّ أَلَمْ يَتَدَارَكْ حُمُودُهُ بِأَشَا الدُّوَلَةِ
الْحُسَيْنِيَّةِ وَقَدْ وَجَدَهَا وَاهِنَةً مَنُهِوَكَةً الْقُوَى ؟ ثُمَّ أَلَمْ يُؤَسِّسْ خَيْرُ
الدِّينِ إِدَارَةَ نَزِيهَةٍ مُنَظَّمَةٍ وَيُطَهِّرَ الْحَالَةَ الْمَالِيَّةَ الْمُتَعَفِّفَةَ بَعْدَ
اسْتَفْحَالِ الْفُسَادِ وَاشْتِدَادِ شَوْكَةِ الطُّغْيَانِ ؟ ثُمَّ - وَمَا بِالْعَهْدِ
مِنْ قَدَمٍ - أَلَمْ يَنْتَشِلْ زَيْنُ الْعَابِدِينَ الْبِلَادَ وَقَدْ كَانَتْ عَلَى شَفَا
حُفْرَةِ مِنَ النَّارِ ؟

* * * *

وَشَأْنُ كُلِّ الْأَحْدَاثِ الْعَظِيمَةِ فَقَدْ أَشَاعَتْ حَرَكَةُ التَّغْيِيرِ فِي
نُؤُسٍ قِيمَمَهَا الْعَلِيَا الْجَدِيدَةِ فَأَقْرَبَتْ الْمَصَالِحَةَ وَالتَّسَامُحَ
وَالِانْتِفَاحَ وَأَصْلَحَتْ مَا رَأَى عَلَيْهِ الْفُسَادَ وَحَرَّرَتْ مَا كَبَلَتْهُ الْقَيُودُ
وَالْأَغْلَالُ . أَفَلَا يَحِقُّ لَنَا نَحْنُ التَّوَنُّسِيِّينَ أَنْ نَحْتَفِلَ بِذِكْرِى
التَّغْيِيرِ فَتُحَسِّنَ الْأَحْتِفَالُ وَتُخَلِّدَهَا وَتُحْيِيَهَا فَتُنْجِزِلَ التَّخْلِيدَ
وَالْإِحْيَاءَ ؟ وَلَكِنَّ الْأَحْتِفَالَ لَمْ يَعُدْ عِنْدَنَا الْيَوْمَ قَرِينِ الْبَهْرِجِ
وَاللَّهْوِ أَوْ دَاعِيَةً إِلَى الرُّهْنَى عَنِ النَّفْسِ وَخُتًا عَلَى الْغُرُورِ وَسَبَبًا
لِلْإِخْلَادِ إِلَى الطَّمَانِينَةِ وَالِدَّعَةِ وَإِنَّمَا هُوَ مُنَاسِبَةٌ لِنُصِيفِ لَيْلِنَاتِ
جَدِيدَةٍ إِلَى قَلْعَةِ مَكَاسِينَا وَنُزْفِعَ صُرُوحًا عَالِيَةً فِي حِصْنِ
مَآثِرِنَا ، لَأَنَّ الشُّعُوبَ النَّابِئَةَ الرَّشِيدَةَ هِيَ الَّتِي تَصْفَحُ عَنْ تَعْدَادِ
مَفَآخِرِهَا الْمَاضِيَةِ وَأَمْجَادِهَا التَّيْدَةِ وَلَا تَنْتَهَى بِاسْتِعَادَةِ
أَيَّامِهَا السَّالِفَةِ وَإِنَّمَا تَمْضِي قَدَمًا إِلَى أَسْتِشْرَافِ
مُسْتَقْبَلِهَا الْبَعِيدِ وَإِنْجَازِ مَا رَسَمَتْهُ لِنَفْسِهَا مِنْ مَقَاصِدِ
سَامِيَةٍ وَمَا صَمَّمَتْهُ لِلْأَجْيَالِ الْآتِيَةِ مِنْ غَدٍ مُشْرِقٍ
كَرِيمٍ .

المرأة بين حركة الإصلاح و مكاسب التغيير

بقلم : الأزهر النبطي

من الناحية المنهجية حدّدنا محاور هذا العمل في قسمين رئيسيين :

أ - المرأة وحركة الإصلاح في تونس

ب - المرأة ومكاسب التغيير

١ - المرأة وحركة الإصلاح في تونس

(وإنّا لنا في تاريخ بلادنا الحافل بالأمجاد وفي نفحات حركة التحرير والإصلاح وفي مكاسب دولة الإستقلال ومنجزات العهد الجديد ما يساعدنا على تحقيق هذه الغايات بكلّ يسرّ متى صحّ العزم من الجميع على معانقة شوق الحياة ومغالبة الصّعاب) (1)

على هذا الأساس ، يكون الحديث عن المرأة في فترة تشهد فيها بلادنا ارتفاعا في نسق الإصلاح الشامل حديثا عن الإقتصاد بما أنّ الحديث عن المرأة انخرط في صميم الفكر الإصلاحي في تونس وفي مدلول النهضة والتنمية الشاملة - والحديث عن المرأة هو أيضا الحديث عن المجتمع أي عن تركينة المجتمع من أجل إعادة هيكلة هذا المجتمع هيكلية جديدة وولادة أسرة زوجية تتطوّر بتطوّر الحركات الإصلاحية نحوها .

وقد عالج العديد من المفكرين موضوع المرأة بكثير من العناية والجرأة والموضوعية بحثا منهم عن ترسيخ السلوك الحضاري في مجتمع تمثل المرأة نصفه ، ورسالة أحمد بن أبي الضياف المؤرخة في سنة 1856 تبرز مدى وعي رؤاد حركة الإصلاح في تونس بأهمية دور المرأة في النهوض بالمجتمع لاستكمال مشروع الإصلاح الشامل إذ يقول في خاتمتها : (وحبّ الوطن سجيّة للحيوان أحرى نوع الإنسان لا فرق فيه بين الرجال والنساء) .

والملاحظ أنّ أولّ من أثار قضية تحرير المرأة في تونس في القرن التاسع عشر بعد رفاعة الطهطاوي في مصر في كتابه « تلخيص الإبريز » هو المصلح خير

الدين في كتابه « أقوم المسالك » حث في آخره على تربية المرأة لأبنائها ضمن مفهوم ينخرط في صميم ترسيخ السلوك الحضاري وكذلك أثار الشيخ محمد السنوسي (1851 - 1900) هذه القضية سنة 1897 في رسالته « تفتّح الازمان أو إرادة لحقوق المرأة في الإسلام » التي نشرت بالمجلة التونسية مترجمة عن محي الدين السنوسي والقبائلي حدّد فيها الشيخ موقفه من حقوق المرأة وتحريرها بقوله : « وحيث أنّي رأيت أنّ من اهتمّ بهذه المسألة يحدث له ارتكاب الأخطاء التي ينبغي تجنبها من ذوي النظر السديد عزمّت على تحرير هذه الرسالة وحاولت فيها الدفاع عن الحقيقة وقد أردت أن تكون هذه الرسالة بمثابة التحية الموجهة إلى المرأة والمحتوية على عرض لحقوقها » .

وفي سنة 1907 أثار الشاعر عبد العزيز المسعودي ابن المؤرخ والشاعر التونسي الباجي المسعودي قضية تحرير المرأة بقوله : « يجب الاطاحة بالتّوق المضروب على المرأة والقضاء على كلّ الممارسات الموجهة إليها » وتواصلت هذه الحركة الاصلاحية التي ترى أنّ المرأة لا تقلّ منزلتها مبدئيا في الإسلام عن الرّجل لا من حيث العقيدة ومن حيث التشريع ولا من حيث التأثير الروحاني ولا من حيث المسؤولية ولا من حيث التأثير الاجتماعي . وقد ترسّخت هذه الأفكار الاصلاحية في بداية القرن العشرين مع حركة الشباب التونسي ومع عبد العزيز الثعالبي في كتابه الفكر الحرّ وكذلك مع الصحفي القدير المرحوم الهادي العبيدي في مقالاته المطوّلة بجريدة « الصّواب » إذ يقول : « فبالحرير تتمكّن المرأة من تكوين ذهنها بالعلوم والمعارف وتضرب في مجال الحياة إلى جانب الرّجل » (2) . واكتملت هذه النظرة الاصلاحية في الثلث الأوّل من القرن الحالي عند الطاهر الحدّاد الذي نظر إلى المرأة من الجانبين الاجتماعي والسياسي في كتابه « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » ونادى بتمكين المرأة من ثقافة متنوّعة اجتماعية ومنزلية وعقلية وأخلاقية وزوجية وصحيّة على أساس مخطّط تعليمي يعتبر خياليا في تلك المرحلة لأنّه قام على مبدأين أساسيين : تهذيب النوق من ناحية وتكوين العقل من ناحية أخرى : « وقد رأيت بعين يقيني أنّ الاسلام بريء من تهمة تعصيده للإصلاح بل هو ديننا القويم يجعل من الإصلاح ديننا ومنبعه الذي لا

ينضب « (3) .

فالتأهر الحداد عاش فترة تيقظ وتحمس للواجب الوطني ووضع في كتابه « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » شرطا أساسيا لتحرير المرأة ومساواتها بالرجل وهو التعليم الذي بفضلله نؤهل المرأة للشغل والمشاركة في الدورة الاقتصادية والرفع من مستوى الفرد في المجتمع . وجرأة أفكار التأهر الحداد الإصلاحية وأهدافها البعيدة المدى استطاعت تجاوز أطروحات رؤاد حركة الإصلاح في الوطن العربي ومنهم قاسم أمين في « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » خاصة على مستوى القضايا الجوهرية المتعلقة بالمرأة كالتعليم والحجاب والزواج والطلاق .

ففيما يتعلق بالتعليم يرى قاسم أمين ضرورة التعليم الابتدائي للمرأة بينما يطالب التأهر الحداد بكل العلوم وحتى بالرياضة والموسيقى . ويخصوص الحجاب يطالب قاسم أمين بالحجاب الشرعي إذ الإسلام يتيح للمرأة بأن تكشف عن وجهها ويديها وهو لا يطلب أكثر من ذلك بينما يعتبر التأهر الحداد الحجاب مشينا للمرأة ومهينا لكرامتها ينبغي أن تطرحه جانبا لأنه يعيقها عن أداء واجباتها الاجتماعية . ويخصوص الزواج يستببح قاسم أمين نظر الخطيبة لمخطوبها ونظر الخاطب للمخطوبة بينما يذهب التأهر الحداد إلى طلب الفحوص الطبية للزوجين قبل الزواج ويعارض الزواج بالاجنبية ثم يطالب بالغرامة للزوجة لا في حالة الطلاق فحسب بل حتى في حالة الوعد الكاذب بالزواج . وهي دون شك أفكار تقدمية تميزت بالجرأة في عصرها تناولت تحرير المرأة ومساواتها بالرجل .

فحركة الإصلاح في تونس على اختلاف منطلقاتها ونتائجها برهنت عن رغبة في التفكير والتطوير والتغيير .

بداية الوعي عند المرأة التونسية

والملاحظ أن بداية الوعي عند المرأة التونسية بدأ منذ سنة 1924 وذلك بظهور معركة السفور والحجاب بمحاولة منووية الورتاني التي حضرت لمواكبة محاضرة حول المرأة ووضعها الاجتماعي وقامت سافرة وناقشت موضوع المحاضرة بكل جرأة ومسؤولية مما أثار زوبعة في ذلك الوقت وأيضا بمحاولة حبيبة المنشاري سنة

1829 حين قدّمت محاضرة حول المرأة والحجاب أريكت الحضور وأدخلت على نفوسهم الكثير من السخط والغضب .

وقد تأسست جمعيات نسائية للدّفاع عن حقوق المرأة التونسية كانت مستقلة أو فروعا في صلب جمعيات وحركات شبابية نذكر من بينها الإتحاد الاسلامي النسائي الذي تأسّس سنة 1936 على يد المرحومة بشيرة بن مراد وقد تلخّصت أهدافه في : توجيه الفتاة التونسية نحو التعليم والأخلاق والرفع من مستواها الثقافي وادماجها في حركات الشباب وقد ساند الإتحاد الإسلامي النسائي الحركة الوطنية بجمع التبرّعات .

وفي سنة 1943 تأسست جمعية الشبان المسلمين برئاسة الشيخ محمد الصّالح النّيفر وضمت في صلبها فرعا خاصا بالنساء التونسيات وفي سنة 1954 تكوّن نادي الفتاة التونسية .

وعلى مستوى الإعلام ساهمت المرأة التونسية بقلمها في مجلة «شيخ الإسلام» لصاحبها الشيخ محمد الصّالح بن مراد حيث أفردت هذه المجلة صفحات خاصة بالمرأة كتبت فيها المرحومة بشيرة بن مراد مقالات مطوّلة تدافع عن حقوق المرأة . كما كتبت المرأة بمجلة «الشبان المسلمين» وكذلك بمجلة «الهام» وقد أبرزت هذه المساهمات حضور المرأة في صلب حركة الاصلاح بتونس ووعيتها بحقوقها المشروعة .

وفي سنة 1956 أنصفت مجلة «الأحوال الشخصية» المرأة بتشريعاتها التقدمية الإصلاحية وضمنت لها حقوقها وخلصتها من ممارسات العصور السالفة وأثبتت أنّ المرأة جديرة بالحرية وبكافة الحقوق التي يتمتع بها الرجل على أساس أنّها عضو فاعل في المجتمع وشريك قائم الذات إذ تجدر الإشارة إلى أنّ وزارة التربية والعلوم قد سجّلت في آخر احصائية بنسبة 40 من طلبة جامعاتنا الثلاث بينما لم يتجاوز الرقم 60 فتاة بمختلف أنواع التعليم بكامل الايالة التونسية في سنة 1900 .

« لقد أنصفت مجلة الاحوال الشخصية ديننا الحنيف وأبرزت توجهات شريعتنا الإسلامية بأكثر صورها وكان تجسيما رائعا لتطلعات رجال النهضة والاصلاح في

بلاد الاسلام وكلهم ناصر المرأة وناصر الدين وسعى إلى تخليصه مما علق به من شوائب ومما ران عليه من ممارسات وقراءات ابتعدت به عن جوهره ومقاصده» (4)

والملاحظ أن طرح اشكالية حقوق المرأة في تونس يعود إلى خضمّ القرون الوسطى خاصة في الحكم الزيري والحكم الحفصي حينها كان الزواج بالمرأة الواحدة (عقد القيروان) وأكثر من ذلك كانت العصمة بيدها .

2- المرأة ومكاسب التغيير

من الناحية المنهجية حدّدنا عناصر القسم الثاني لهذا العمل في ثلاث نقاط رئيسية :

أ- المرأة والتغيير

ب- المرأة والآليات الحديثة التي تدعم مكاسبها

ج- مكاسب المرأة والأسرة منذ السابع من نوفمبر 1987

أ- المرأة والتغيير

« إن من مفاخر بلادنا أن شعبنا كان من أوائل الشعوب التي تخلصت من المركبات ونبذت التمييز على أساس الجنس وفتحت المجال فسيحا لعمل المرأة ونضالها إلى جانب الرجل ورعت حقوقها ومكاسبها وأن من المفاخر كذلك أن بواعي نهضة المرأة التونسية وتحررها لم تكن نسوية ولا وليدة شعور بالنقص والحيف بقدر ما كانت دوافع انسانية ومدنية ووطنية سامية » (5)

على هذا الأساس ، راهنت تونس منذ استقلالها على اختيارات اصلاحية جهورية كبرى استجابت لطموحات روّاد حركة الإصلاح واعتبرت المرأة مواطنة كاملة الحقوق والواجبات وصدرت مجلة الأحوال الشخصية 13 أوت 1956 أشهر قليلة بعد الاستقلال فكانت أحكامها خلاصة اجتهاد فقهي يعتمد الأصول والمقاصد فأحكمت بذلك الانسجام والتناسق بين تعاليم الدين الحنيف والتفاعلات والتطورات الاجتماعية وما تقتضيه من مصالح وهيأت هذه الاختيارات الجهورية المجتمع التونسي لدخول مرحلة التغيير والإصلاح التي تطلّع خلالها الشعب التونسي إلى مستقبل طموح تأسس على المبادئ والقيم التي أقرها بيان السابع من نوفمبر 1987 فكان الرّهان المتجدّد مع سنن الحداثة ودوافع التطوير والتغيير التي أُنكّت

أنه لا يمكن أن نرسي قواعد مجتمع مدني متكافئ متكامل متوازن يضمن مشاركة جميع الفئات في مسيرة الإصلاح والتغيير دون أن نقرأ حساباً لنصف المجتمع المتمثل أساساً في المرأة باعتبارها المؤثر الأساسي والفاعل في تنشئته جيل المستقبل . وطبيعياً مع نشر التعليم أن تدرك المرأة مالها وما عليها من دور فاعل في الحياة العامة إضافة إلى الحياة المهنية التي تضطلع بها وإلى الحياة الأسرية المطالبة بأداء الدور الأساسي فيها .

« لقد استأثرت شؤون الأسرة برعاية خاصة حيث نالت المرأة منزلة الصدارة فدعّمنا مكاسبها وطورنا حقوقها وأتحنّا لها من الفرص والضمانات ما يساعدها على القيام بدورها في كلّ القطاعات الممكنة » (6)

ولقد حظيت المرأة التونسية بتشريعات تقدمية تعتبر حلماً يراود الكثيرات من النساء في العالم لا تقلّ قيمة علمية ونضجاً ووعياً عن المرأة التونسية لكن المشرع والوسط الاجتماعي والإنتماء لم يمكنهنّ ممّا توفّر للمرأة التونسية من حقوق تحسد عليها .

« إنّ المرأة المناضلة اليوم هي القادرة على الدفاع عن مكاسبها وعلى أن تكون قوة فاعلة لبناء المستقبل » (7) <http://Archivebeta.Sak>

واعتقادنا أنّ امضاء الاتحاد الوطني للمرأة التونسية على وثيقة الميثاق الوطني مع كلّ الأطراف المسؤولة سياسياً واجتماعياً سنة 1988 لهو دعم أكيد لحقوقها ومكاسبها وحضورها الفاعل على الساحة الوطنية . فاختياراتنا الحضارية وتشريعاتنا التقدمية تنطلق أساساً من واقع تونس كما ينصّ على ذلك الفصل الأوّل من الدستور (بلد عربي اسلامي دينه الاسلام ولفته العربية) والمرأة التونسية جزء من كلّ وهي المسؤولة على تجنيز وتثبيت البعد الحضاري في ناشئتنا ولا يمكن أن تغرس هذه المبادئ والقيم إذا لم تكن هي نفسها متشبّعة بها . ويقدر حرص النّوّلة على تطوير مكاسب المرأة والعمل على نشرها في القاعدة العريضة للمجتمع بقدر حرص المرأة المسؤولة على الحفاظ على جوهريتنا وأصالتنا واختياراتنا التقدمية لأنّ الحرية تعني المسؤولية .

« وقد اجتمعت على اصدار مجلة الأحوال الشخصية الارادة الدينية والمدنية

لأنها ثمرة القيم التي تنامت في العصر بحكم تطوّر المجتمع وتفاعله مع الواقع الذي اقتضته الأفكار والرؤى الحديثة والاجتماعية منها والسياسية» (8) .

ب- المرأة والآليات الحديثة

« وإنتنا نؤكد مرّة أخرى أنّ حضور المرأة بشكل فعّال في مختلف الأنشطة والمسؤوليات يمثل خير ضمان لتحسينها وتحسين المجتمع من مخاطر الانغلاق والتحجر الفكري ويعزّز دورها في النضال والمشاركة من أجل دعم مقومات المجتمع المدني واكسبه المناعة اللازمة ضدّ نزعات الرجعية والتطرّف » (9) .

على هذا الأساس ، ولضمان أوفر حظوظ النّجاح لسياسة التّوّلة في مجال النهوض بالمرأة بعثت الإرادة السياسية لتونس التغيير مجموعة من الهياكل الوطنية للعناية بشؤون المرأة والأسرة ودعم مكاسبها

1- **وزارة المرأة والأسرة** : منذ شهر أوت 1993 ارتفعت كتابة التّوّلة للمرأة والأسرة إلى مرتبة وزارة في صلب التشكيلة الحكومية لتعمل على اعداد سياسة الحكومة في مجال المرأة والأسرة والتنسيق العمل بين الهياكل والأطراف المعنية بشؤون المرأة والعائلة .

2- **مركز الدراسات والتوثيق والإعلام حول المرأة** : في شهر أفريل 1990 أحدثت هذه المؤسسة الوطنية بقرار رئاسي لتعمل خاصة على :

- تشجيع الدراسات والقيام بالبحوث حول المرأة

- جمع المعلومات والوثائق المتعلقة بأوضاع المرأة

- المساهمة في نشر المعلومات التي تبرز حقوق المرأة وتنظيم الندوات الإعلامية

المتعلقة بإبراز أنشطة المرأة التونسية مشاركتها في الحياة الوطنية

- اعداد التقارير حول مكاسب المرأة وطموحاتها المشروعة في ظلّ حركة التغيير

والإصلاح .

3- **اللجنة الوطنية الخاصة بدور المرأة في التنمية خلال المخطط الثامن**

وقد أحدثت هذه اللجنة الوطنية في شهر جوان 1991 وأوكل إليها ضبط

استراتيجيةّ شاملة واعداد برامج وإجراءات عملية في كل المجالات المتاحة لفائدة المرأة

4- المجلس الوطني للمرأة والأسرة : وقد تأسس هذا الهيكل الوطني في 7 ديسمبر 1992 وهو حالياً تحت إشراف وزارة المرأة والأسرة حيث يجمع في تركيبيته ممثلين عن الهياكل والمؤسسات الحكومية العاملة في هذا المجال . ويعمل المجلس على تنسيق العمل بين مختلف المتدخلين كما يبدي الرأي والمشورة ويقترح التدابير الضرورية والإجراءات العملية لفائدة المرأة والأسرة .

5- المنظمات والجمعيات النسائية

« إن هذه المنظمات والجمعيات هي مفخرة تونس والتونسيين وهي عنوان حيوية مجتمعنا المدني وضمان قدرته على مغالبة عوامل التقهقر والارتداد إلى الوراء » (10) .

فمع حركة التصحيح والإصلاح ظهرت في تونس 10 جمعيات نسائية لتعزيز الحياة الجمعياتية في بلادنا ولدعم مكاسب المرأة والأسرة والدفاع عنها وهي :

- الاتحاد الوطني للمرأة التونسية

- الجمعية التونسية للنساء الديمقراطيات

- جمعية النساء التونسيات للبحوث والتنمية

- الجامعة الوطنية للفلاحات <http://Archivebeta.Sak>

- الفرقة الوطنية للنساء صاحبات المشاريع الاقتصادية

- اللجنة الوطنية للمرأة العاملة الراجعة بالنظر للإتحاد العام التونسي للشغل

- فرع تونس للحركة العالمية للامهات

- نادي فوزية قلّال

- نادي قداماء معهد نهج الباشا

- جمعية قداماء معهد الفتيات بسوسة

- نادي عليسة

ج- مكاسب المرأة والأسرة منذ السابع من نوفمبر 1987

« إن المرأة عنصر أساسي في بناء المجتمع وتحقيق التنمية وهي تؤهله بكل رشد القيام بدورها في المجتمع والدولة . وإن التوازن الاجتماعي يتوقف على إتاحة الفرص المتكافئة لكل مكونات المجتمع بدون استثناء » (11)

على هذا الأساس ، تتميز سياسة الدولة في مجال المرأة بالشمولية والتواصل لماكبة التطورات الإقتصادية والإجتماعية والثقافية التي يشهدها مجتمعنا . وحتى تكون المرأة مواطنة كاملة الحقوق ، مشاركة في ثورتها الهادئة النافذة التي تعدّ الإعداد الأمثل لتونس القرن الواحد والعشرين اتخذت الإرادة السياسية للتغيير جملة من الإجراءات الثورية أعلن عنها رئيس الدولة في الذكرى السادسة والثلاثين لإصدار مجلة الأحوال الشخصية 13 أوت 1992 وتتعلّق أساسا بمبادئ حقوق المواطنة الكاملة للمرأة والرفع من مكانتها داخل الأسرة والمجتمع ، ويتمحور هذه الإجراءات حول ثلاث نقاط رئيسية .

1- المرأة والحقوق التشريعية

ب- المرأة والحياة السياسية والمدنية

ج- المرأة وسوق الشغل

1- المرأة والحقوق التشريعية

تؤكد القوانين والتشريعات التونسية في مجال المرأة على مبدأ المساواة بين الجنسين وقد أقرّ الميثاق الوطني سنة 1988 أن مبدأ المساواة لا يقلّ أهمية على مبدأ الحرية كما أكدّ قانون الأحزاب على شرط احترام كلّ الحساسيات لمبدأ المساواة بين المواطنين .

على هذا الأساس أدخلت جملة من التنقيحات على المجالات التالية :

أ - تعويض مبدأ واجب طاعة الزوجة لزوجها بمبدأ الإحترام المتبادل

ب - موافقة الأمّ على زواج ابنتها القاصرة

ج - تشريك الأمّ في تصريف شؤون الأطفال لا سيّما الأمّ المطلقة التي تعود إليها حضانة الأبناء

د - منح البنت القاصرة حق تسيير شؤون بيتها

- إحداث صندوق يضمن تسديد النفقة والجراية المحكوم بها لفائدة المفارقات

وأبنائهنّ وقد انتفعت من موارد الصندوق إلى حدّ الآن 500 امرأة مطلقة

هـ - العمل على تكوين القضاة في مجال حقوق المرأة

و- مراجعة أحكام النفقة بما أمكن لتواصل الإنفاق على الأبناء حتّى بلوغ سنّ

الرَّشْدَ أو إتمام دراستهم وتبقى البنت مستحقة للنفقة بعد سنَّ الرَّشْدِ إذا لم يتوفَّر لها الكسب إلى زواجها .

وتشمل التتقيقات كذلك قانون الجنسية والمجلة الجنائية ومجلة الإجراءات المدنية ومجلة الشغل أين أضيف فصل عام يقرَّ قاعدة عدم الميز بين الرَّجُل والمرأة في ميدان الشغل وحذف ما كان يعتبر خاصاً في الأجر .

« وإنَّ عمل المرأة هو مفتاح تقدُّمها وهو كسب كبير للعائلة والمجتمع بأسره ونحن إذ نجدد تأكيدنا لهذا الحق فإنَّنا سندعمه من خلال التشريعات والإجراءات من ذلك أنَّنا سنضيف فصلاً كاملاً ضمن مجلة الشغل يقرَّ قاعدة عدم الميز بين المرأة والرَّجُل في ميدان الشغل وسنحذف من هذه المجلة ما يمكن أن يعتبر من ذلك ما يخصُّ الأجر الفلاحي » (12)

2- المرأة والحياة السياسية والمدنية

حرصت الإرادة السياسية للتغيير على مشاركة المرأة في الحياة السياسية والمدنية لما بلغت من نضج وعي أهلها إلى أخذ القرار وقد تجسَّد هذا الحرص في حضور المرأة في العديد من المجالات :

أ - في الحكومة : تضمُّ التشكيلة الحكومية وزيرة معتمدة لدى الوزير الأول مكلفة بشؤون المرأة والأسرة

ب - في السلطة التشريعية : نسجل حضور 7 نائبات بمجلس النواب حيث تمثِّل نسبة النساء النائبات 4.26 ٪ من مجموع النواب حالياً مقابل 1.82 ٪ سنة 1966

ج - في المجالس البلدية والإستشارية : تمثِّل نسبة النساء المنتخبات حالياً 14 ٪ مقابل 1.26 ٪ سنة 1957

د - في المجلس الإقتصادي والإجتماعي : تمثِّل نسبة النساء 11 ٪ من مجموع الأعضاء وقد انتخبت امرأة نائبة لرئيس المجلس وأخرى رئيسة للجنة

هـ - المجلس الأعلى للقضاء : يضمُّ المجلس في تركيبته امرأتين من مجموع 15 عضواً

و - النواويز الحكومية : تمَّ تعيين ثلثة من النساء نوات الكفاءات العالية بالنواويز

الحكومية مجازاة لما للمرأة من كفاءة وتشجيعا لها على المضي قدما في مجال الحضور والفعل في الحياة الوطنية

ن- في التأطير السياسي : لأول مرة في تاريخ تونس يتم أحداث مناصبين سياسيين يتمثلان في تعيين امرأة مستشارة لدى رئيس الجمهورية مكلفة بشؤون المرأة أمانة قارة بالتجمع الدستوري الديمقراطي وقد ارتقت في شهر أوت 1993 إلى رتبة أمانة عامة مساعدة للتجمع الدستوري الديمقراطي عضو بالديوان السياسي في شخص الأستاذة نزيهة زروق وتتخلص مهامها في ترسيخ العمل السياسي في القواعد النسائية الموسعة إذ شهدت السنة الحالية انتخاب 3000 امرأة في شعب التجمع من بينهن 45 امرأة تتولى رئاسة شعب و 170 امرأة أعضاء بالجامعات الدستورية من بينهن كاتبة عامة لجامعة معتمدة بئر مشاركة من ولاية زغوان إلى 22 امرأة أعضاء باللجنة المركزية وكاتبة عامة مكلفة بشؤون المرأة بكل لجنة تنسيق .

3- المرأة وسوق الشغل

« ولهذا أكدنا العناية بتعليم البنت بتكوينها مهتيا واعتبرنا نجاعة الإصلاح التربوي مرتبطة بتوفير نفس الظروف للأولاد والبنات وتشجعنا الجمعيات النسائية وقوافل النوعية وبرنامج مقاومة الأمية ونبهنا إلى دور المرأة في تنشئة الأجيال تنشئة متوازنة سليمة تقوم على غرس القيم الروحية والوطنية وعلى تحصين البنين والبنات من دوافع التطرف والإرهاب » (12)

الرئيس زين العابدين بن علي 13 أوت 1992

على هذا الأساس ، تركزت جهود العهد الجديد على الرفع من المستوى المعرفي للمرأة والحد من الإنقطاع المبكر عن التعليم للفتيات فبلغت نسبة تدريس البنت منذ التحول المبارك 84.46 سنة 1993 بالتعليم الابتدائي و 30٪ بالتعليم الثانوي و 40 ٪ مثلما أسلفنا بالتعليم العالي .

« وفاء منا لهذا الإمتياز أولينا قطاع التربية والتعليم ما يستحقه من اهتمام مؤكد جئى أصبحت المؤسسة التعليمية في بلادنا اليوم عنوان نخوة واعتزاز لدى كل التونسيين بفضل الإصلاحات الجوهرية التي أدخلناها على النظام التربوي »

وعلى مستوى حضور المرأة بسوق الشغل فقد سجلت نسبة 23.9 ٪ بالوظيفة العمومية و 33 ٪ بسلك التربية والتعليم و 43 ٪ بمجال الصحة (إطار طبي وشبه طبي) و 21 ٪ بمجال الإعلام والإتصال و من 27 إلى 33 ٪ بقطاع الفلاحة و 43.5 بالمؤسسات المتوسطة والصغرى و 76.4 بميدان النسيج .

وقد تمكن صندوق التأهيل والإدماج في الحياة المهنية من استيعاب 2000 فتاة من مجموع 22000 منتفعا بتدخله كما تمت مراجعة برامج التكوين المهني للرفع من طاقة استيعاب المراكز والترفع من نسبة انتفاع الفتيات .

ولتفادي النقائص تمّ اتخاذ جملة من التدابير العملية لتشجيع المرأة على المبادرة والعمل منها :

أ - حذف لكلّ ما من شأنه أن يعتبرميزا فيما يتعلّق بالأجر الفلاحي للمرأة

ب إصدار مجلة الإستثمارات الفلاحية واعطاء امتيازات للفلاحات البالغات من السن بين 35 و 40 سنة

ج - تشجيع التنظيمات النسائية الريفية

د - تمكين المرأة من الانتفاع من التسهيلات التي وفرتها الدولة للصّناعيين والمستثمرين فيما يتعلّق بالقروض

هـ - وضع عدّة مشاريع لفائدة المرأة الريفية التي تمثّل نسبة حضورها بين 27 و 33 ٪ من عدد السكان النشيطين في قطاع الفلاحة خاصة في تعاطي الزراعة والصيد البحري والصناعات التقليدية .

علما أنّ في مجال صحة المرأة والأسرة وبفضل خدمات ديوان التنظيم العائلي نزل العد التصاعدي لحجم الولادات من 7.2 في سنة 1975 إلى 3.4 في سنة 1989 ليصل حاليا إلى 2 وستواصل الدولة جهودها بتحسين نوعية الحياة بالعمل على تقليص نسبة النمو الديمغرافي إلى حدود 1.5 في نهاية المخطط الثامن ، كما تجاوزت نسبة الحياة بين النساء 51 سنة عام 1966 لتصل إلى 72 سنة في 1992 .

والسؤال المطروح كيف ستحافظ المرأة على هذه المكاسب الحضارية ؟ الجواب

نورده على لسان سيادة رئيس الجمهورية الرئيس زين العابدين بن علي في خطابه المؤرخ في 13 أوت 1992 : «وإنَّ المحافظة على هذه المكاسب وتطويرها وإن كانت مسؤولية جماعية فإنَّ المرأة هي المسؤولة عن ذلك قبل سواها وإن يتجسد ذلك إلا بإقامتها الدليل باستمرار على جدارتها بهذه المكاسب من خلال المشاركة الفعلية في مختلف أوجه الحياة والنشاط الوطني على تنوع مجالاته وبالتزامها بالقيم الوطنية والدينية وتصديها لكل محاولات التشكيك والإحباط . وعليها أن تعمل في ذلك على نفسها قبل كل شيء وعلى المنظمات والجمعيات النسائية بمختلف توجهاتها وميادين نشاطها وإنَّها ستجد بدون شك كل المساندة من سائر الهياكل المنظمة للمجتمع المدني»

* الإحالات :

- (1) الرئيس زين العابدين بن علي .
- (2) عن جريدة الصَّوَاب 20 جانفي 1928 .
- (3) عن امرأتنا في الشريعة والمجتمع .
- (4) الرئيس زين العابدين بن علي 15 أوت 1989 .
- (5) الرئيس زين العابدين بن علي 13 أوت 1992 .
- (6) الرئيس زين العابدين بن علي 7 نوفمبر 1994 .
- (7) الرئيس زين العابدين بن علي 18 ماي 1991 .
- (8) الرئيس زين العابدين بن علي 13 أوت 1992 .
- (9) الرئيس زين العابدين بن علي 7 نوفمبر 1994 .
- (10) الرئيس زين العابدين بن علي 15 أوت 1989 .
- (11) الرئيس زين العابدين بن علي مؤتمر المثابرة 29 جويلية 1993 .
- (12) الرئيس زين العابدين بن علي 13 أوت 1992 .
- (13) الرئيس زين العابدين بن علي 13 أوت 1992 .
- (14) الرئيس زين العابدين بن علي 7 نوفمبر 1994 .

درس ثان في :

القراءة والكتابة

محمد المهدي المهري

(4) رؤية لمشروع « خط » جديد :

(...) يسود الظن بأن التفكير في مسألة إيجاد خط جديد لتحسين القدرات البصرية ، ومن خلالها القوى الذهنية ، لا يعدو أن يكون أمرا قليل الأهمية نظرا لكون العين تبصر إذا انعكس المرئي على شبكيته ، فتنقل الصورة إلى الدماغ حيث يقع تأويلها في فترة زمنية لا تكاد تذكر . غير أن الإشكال يتعلق في الحقيقة بهذه الفواصل ذاتها : أي بين العين والمرئي من جهة ، إذا تعلق الأمر بالمسافة وظروف الإدراك وخصوصيات الموضع أو مجال الإدراك ، وتعلق أيضا بال لحظة الزمنية التي يتم فيها الإدراك بالنظر إلى القرائن النفسية والموضوعية المرتبطة بها ، ثم من جهة ثانية الفاصل الواقع بين الصورة المرسومة في العين واجتهاد الدماغ في تأويلها ، وذلك لأن الأمر يرتبط بصفاء الصورة والمجال الذي اقتطعت منه ، كما يتعلق بالجهاز المؤثر ، والذي يستند إلى قاعدة أساسية ، تحضر مباشرة لدى الحيوان وتعتمد بطريق غير مباشر لدى الإنسان ، ألا وهي الرغبة (وقد تسمى بغريزة البقاء) بعامليها : المحافظة ، والمدافعة .

والإنسان بخلاف الحيوان ، لا يحدد موقفه من الأشياء - عادة - بمجرد أنه يراها ، بل يقوم بتأويلها على أنحاء شتى ، ولا يوصلها بالقصد إلا بطرق ملتوية تزداد غموضا وتشابكا كلما كانت الرغبة أقوى ، التي تبقى هي الوجه بالرغم من لا معقوليتها الظاهرة .

ويؤدي بنا كل ذلك إلى نتيجة مفادها : أن عيني الإنسان تنطويان على فراغات وتباطؤ زمني في الإدراك لا توجد في أعين الكثير من الحيوانات : القردة ، والطيور ، ومعظم الحيوانات المفترسة ، وكثير من الزواحف ... فهذه تدرك من بعضها العداوة والخوف والقوة والضعف والأمان ... بصورة مباشرة ، بمجرد أن تلتقي نظرات بعضها ببعض . كما أنها عندما تبصر لا تنظر إلى نقطة واحدة ، بل يستوعب تركيزها المجال كله ، وذلك يهيئ لها ردود أفعال ، جريئة ، سريعة ، ذكية

، وصائبة .

يحيا الإنسان في تمثلاته أكثر مما يعيش في العالم ، إذ الوقت الذي يستغرقه
الدماغ في تأويل الصورة يقاس بعشرات أضعاف وقت انعكاس الصورة المبنية ،
على الشبكية ، حتى أننا - في معظم أوقاتنا نتعامل مع الصور المرئية ، كأرقام
وأسماء ، ودرجات ، ومراتب وظيفية ، وحاجات ظرفية ، إلى حد يمكن فيه القول :
بأننا نوجد في عالم ونعيش في آخر أو أننا نعيش حيث لا نوجد ونوجد حيث لا
نعيش . وأذهب بالقول إلى أبعد من تلك ، فيما أننا لا نعرف من العالم إلا ما قد
مضى باعتبار أن علاقتنا بالأشياء تتخللها وسائط عديدة تقتضيها عملية المعرفة
فيمكن القول إذن : إننا نعرف ما لا نعيش ، ونعيش ما لا نعرف .

وتفرض هذه الاستنتاجات نفسها بمجرد إدراكنا لهذا التوسط الواقع بين النظر
وما نراه من الأشياء والذي تمثله الكلمة التي هي الرمز الدال على الوظيفة أو
المرتبة الوظيفية للشيء .

والمطلوب الآن هو أن نسترجع ميزة التوحش التي افتقدناها وبقيت في أعين
الحيوانات الطليقة ، وذلك دون أن نفقد الكلمة ، وبمعنى آخر دون أن نفقد القيمة أو
القانون أو الوعي . ونتجج بذلك الطريق في إدخال الكلمة إلى صلب الطبيعة عبر
خاصية في النظر ، كما سنتمكن من حماية أنفسنا من بعض قيم التجنين التي
يرادُ من خلالها أن لا نفهم العدل على أنه التوازن بين قوى متدافعة ومختلفة بل
نفهمه على أنه استسلام الضعيف وتسامح المقهور ، والإنسجام مع الاختلال ،
وتثبيت ميلان الكفة في اتجاه واحد وإصالح قوة مركزية واحدة .

وهذا التغيير الذي قد ينجح المرء في إحداثه لبصره يتجاوز التوقعات بل لا يمكن
تثمين آثاره المستقبلية دون أن تكون مقصّرين في هذا التقدير . ولأترك المسألة
مطلقة عند القول : بصر أفضل يهيء معرفة أفضل ، وبالتالي سلطة أفضل ثم عالم
أفضل .

بعد ما تقدم أصبح الأسئلة الرئيسية كالآتي :

ما السبيل إلى تقليص زمن تأويل الصورة عند الرؤية إلى حد أقصى ؟ وكيف
يتسنى للإنسان أن يشتت تركيزه في مجال البصر دون أن يضعف هذا التركيز ،

بمعنى أن تصير له القدرة على أن ينظر إلى أشياء كثيرة وكأنما هو ينظر إلى شيء واحد ؟

ثم أخيرا ، ما هي أهم الانعكاسات والنتائج المنجزة عن ذلك ؟

أ. أسباب التفكير في الموضوع :

لا نجد سببا واحدا يدعونا إلى التفكير في إعادة النظر في طرق الكتابة الموجودة ، بل هي أسباب كثيرة ، بعضها يستند إلى الملاحظة والآخر إلى الاستنتاج ، ثم إننا نلْقَن هذا الخط أو ذاك من خطوط الكتابة ونستعمله كأداة دون أن نفكر في انعكاساته على حاسة العين أو القوة الذهنية أو في إمكانية تحسينه كي يتَّفَق مع طبيعة البصر كما وجد في الأصل عند النظر إلى أشياء الطبيعة ، التي لا تنتظم في شكل خطوط أفقية مسترسلة على صفحات بيضاء ملساء تكون الأشياء فوقها مثبتة على وضعية معينة كالحروف التي نكتبها ، وتغيب هذه الأشياء في دلالة القصد والتوظيف والإسم الملتصق بها ، كما يغيب الحرف عند المعنى الذي تتضمنه الكلمة أو الجملة . ويوجد سبب آخر لا يقل أهمية ويتمثل في أن تكرار أي فعل بشكل رتيب يؤد في العضو عادة ما ، سرعان ما يتحول بزيادة التكرار إلى ملكة ، التي هي بمثابة البرنامج الحامل لخصائص ذلك الفعل ولطريقة إنجازها بسرعة واتقان دون مراقبة من العقل فينطوي العضو على كل ذلك باستقلالية تامة . والعين - كأي عضو - تستلهم من نشاطها عادات كثيرة ، بل يصدق القول : إن العالم الذي نراه إنما هو مجرد تجسيم لعادات العين في الرؤية ، وعلى ذلك يمكن أن نغير فيه إذا أحدثنا تغييرات في تلك العادات . مثلا : لو أحدثنا بطريق الخط عادة في القراءة تجعل العين تتحرك مع حروف ، تدور مجتمعة في شكل دوائر ، لتقرأها ، فإن الأشياء التي سنراها فيما بعد ستفقد ثباتها وستتحرك بانتظام ، فتدور أو تهتز وكأنما هي تسبح فوق أمواج . فالثبات الذي نعتقد أنه خاصية للأشياء إنما هو في الحقيقة من صنع الإدراك وبالأحرى هو صفة وهمية لانتظام الحركة في علاقتها بحركة أخرى تختلف عنها في السرعة وما يجدر ذكره بهذا الصدد التأكيد على وجود عادة مكتسبة في العين هي من أخطر العادات التي يمكن ذكرها ، وهي من صفات عيني الإنسان كما هي في أعين الحيوانات المتوحشة

والطيور وكثير من الزواحف ، قد نعبّر عنها بحدّة النظر ، ولكنها في الحقيقة تجسّم انعكاس السلطة والقدرة والجرأة على المبادرة لردّ أي تعدّي والتحوّط من أي خطر . وتظهر هذه القوة في عيني الإنسان - بشكل جلي - عند الغضب أو القيام بعمل خطير ، أو الوقوع في مأزق وأمر داهم .

هذه الخاصية لا تميّز فردا عن فرد فقط ، بل يمكن أن تميّز شعبا برمته عن شعب آخر . والإنسان الأكثر قدرة على الفعل والأقدر على التحكّم في شخصه وفي غيره هو المسيطر على ملاحظته إلى حدّ يستطيع معه تثبيت أكثر من موضوع واحد لحظة تسليط النظر المركز في المجال .

وفي مستقبل قريب ستصير الدول المستندة في إدارتها إلى مستبدّين لا يناقش قرارهم وأوامرهم تملأ إملاء ، دولا ، لقطعان من الأغنام توكل حراستها إلى كلب يأمّر بأوامر سيّده . إذ سيأتي يوم لا يمكن فيه لأي شخص مهما كان مركزه أن يفلت وينجو من عملية التحكم في عقله وتغيير أرائه وأفكاره بواسطة أساليب جهنمية ستفرض نفسها في الإستخدام السياسي لتوظيف عملاء من المستبدّين على شعوبهم : كاعتماد طرق مختلفة في التكوين المغناطيسي تمكن المعني من النقاط الإحياءات من أصوات بعينها وتنفيذ الأوامر بلا نقاش ، وكذلك التوجيه بواسطة النظر بالعين بالإضافة إلى الأمصال والكيميائيات المؤثرة والتي تيسّر عملية زراعة الأوامر في الشخص المراد كما تزرع الأعضاء أو كما تبرمج آلات (الكمبيوتر) ، فأني رئيس دولة أو زعيم سيكون بمنأى عن هذه المؤثرات ؟ وأي شعب يحكمه مستبدّ لا يكون مهيا لأن يوضع في « علبه سردين » ؟؟ .

لا يمكن تفادي هذا الإشكال قبل وقوع الواقعة إلّا بإقرار جوّ ديمقراطي عام ، يصل الشعب من خلاله إلى إيجاد توازن بين قواه المختلفة . وعندما أقول توازن لا أعني مطلقا صهر هذه القوى في قوة واحدة ، بل يجب على كل قوة أن تلتزم بالقوة الأخرى على عدم اختراق القانون وتجاوز السلطات الممنوحة لها قانونيا وذلك بالقدرة على الردّ الفعلي الحازم والرّادع ، لأنّه لا (وإن) يوجد حزب حاكم يتسكك بالديمقراطية عن اقتناع ، بل لا بدّ من إيجاد قوى منافسة تلتزم بها إلزاما وذلك بالحضور الفاعل على الساحة السياسية والاجتماعية في حالة إنصياعه ، وبكل

في مستوى المنافسة الحقيقية

وبما أن هذه المحاولة التي قمت بها لها علاقة بقدرات الفرد : فهي تنمي كل القوى مجتمعة من ذهنية وعصبية وجسمية ... لذلك تدرج في النطاق السياسي الأعم .

بـ عرض التجربة : « الكتابة المفتتة »

قد شغلتنني هذه التجربة التي سأعرضها ، لسنوات كثيرة ، قمت خلالها بتعديلها أكثر من مرة ، ويتمثل القصد الرئيسي منها ، في إجراء تغييرات في البصر عند النظر إلى الأشياء بما يقوّي الملاحظة ، والانتباه ، والتركيز على أكثر من شيء واحد في الآن نفسه بدون تحريك مقلة العين ، وبصفة عامة ، الإلمام بمجال البصر جملة وتفصيلا .

انتهيت في هذه التجربة إلى اختزال أشكال الحروف العربية الـ 28 وأشكال رسم الهمزة (ء ، و ، ئ ، ث) ، وكذلك الحروف (ي ، ال ، آ) (الألف المعركة ، والألف واللام ، والهمزة الممدودة) ، وأرجعت كل هذه إلى رسمين هندسيين الأكثر بساطة وهما (النقطة والخط) ، وبواسطة تركيبهما على أنحاء شتى ، أمكنني التوصل إلى استحداث أكثر من 35 صورة يمكن استبدال أشكال الحروف الهجائية بمعظمها .

وقد استندت إلى علاقة الإتصال والإنفصال بين الخط والنقطة في غالبية الحروف المركبة ، أما التركيب فلم يتعدّ الجمع حسب العلاقة المذكورة بين ثلاثة رسوم (نقطتين وخط) ، (! ، أو ...) ...

وفي خلاصة ، أمكنني بالاستناد إلى رسمين فقط (النقطة والخط ، (.) و (-) ، أن أكتب كل ما أريد كتابته ، وعلى كل متدرب أن يقرأ ذلك بكل يسر .

وتخضع قراءة الكتابة التي استحدثتها إلى نظام محدّد ، لأنّ مدلول الحرف يختلف حسب موضع الخط من النقطة ، وكذلك الوجهة التي ينتصب نحوها (فوق ، تحت ، يمين ، يسار ، استقامة ، ميلان) . والمرجع المحدّد لهذه الحثيثات المذكورة هي النقطة الحقيقية المرسومة أو الوهمية . وكما يستوعب القارئ الحرف يجب عليه التفطن إلى الرسم والموضع والجهة التي عليها الخط في علاقته بالنقطة كهذا

الحرف (!) أو هذا (-) أو الآخر (-) ... إلخ .

والمرجع المحدد لهذه الحثيات المذكورة هي النقطة الحقيقية المرسومة أو الوهمية . وكى يستوعب القارئ الحرف يجب عليه التفطن إلى الرسم والموضع والجهة التي عليها الخط في علاقته بالنقطة كهذا الحرف (!) أو هذا (-) أو الآخر (-) ... إلخ .

يمكن لهذه الكتابة أن تقرأ في شكل خطي مستقيم يعتمد على تتالي الحروف كما تقرأ أي كتابة أخرى ، ولكن ميزة « الكتابة المفتتة » أنها تقرأ أيضا في شكل خاص مركب ، تستغرق فيه المساحة بأبعادها الأربعة (فوق ، تحت ، يمين ، يسار) ، أي في « صورة صليبية » وهي الصورة الأفضل التي تفي بالفرض في توزيع الحروف على المساحة ، ويوجد مركز المرجعية فيها على نقطة التقاطع بين سطري الكتابة ، وهي نقطة وهمية (غير مرسومة) ، تعين طريقة الكتابة من فوق إلى تحت إلى اليمين إلى اليسار كما تعين أوضاع الحروف مهما تقلبت صورتها .

هذه « الصورة الصليبية » ذات الأبعاد الأربعة والتي تشكلها وتنسجها حروف مفتتة ، قد تكون لكلمة فقط ، وقد تستوعب جملة ، ولكن كلما امتدت هذه الحروف على الإتجاهات الأربعة أكثر ، بحيث تطول الأسطر المشكلة للصليب ، كلما كانت القراءة أصعب وأعسر ، ولكن التدريب عليها وإتقان قراءتها يكون أفيد لقوى العين ، لذلك تبقى هذه الأشكال مفتوحة ، والمبتدئ في القراءة يتعلم هذه الكتابة في شكل متتابع الحروف ، كالكتابة العادية المرسومة على سطر أفقي ، وعند إتقانها يقع التركيب بكلمة ، فكلمتين ، فجملة ... وذلك حسب قدرة بصر الشخص على الضبط والإلمام وسرعته البصرية في بناء صورة الشكل على شبكية العين .

أطلقت على هذه الكتابة إسم « الكتابة المفتتة » لأنها تعتمد على التفرقة والتقسيم واختلاف المواضع . وكل بناء لها في أشكال جميلة سيكون من صنع العين المدركة ، إذا ما اتبعت النظام الذي خصصته عند عملية الإدراك ، لما يتقن الإنسان قراءتها .

وهذه الكتابة في ملامحها العامة تشبه « الكتابة المسماية » ، بحيث أن الحرف فيها يبدو وكأنه دبوس épingle . ونظرا إلى أن كل الحروف تعود في مجملها إلى

نقطة وخط (. .) فهي تبدو وكأنها متماثلة ، غير أننا لو أخذنا بعين الاعتبار النظام الذي عليه تركيب الحروف والصور الصليبية للكلمات المفردة ، أو المركبة مع كلمات أخرى ، فإن هذا يشعرنا بالإنهائية في تنوعها وتعدد صورها واختلاف مواضعها ، وأكون بالتالي قد جمعت في هذه الكتابة بين البساطة المفرطة والتعقيد المتزايد ، وجمعت بين عناصر كثيرة منها ما يتعلّق بالشكل ومنها بالمضمون وكذلك بالإجرائية التنظيمية والوظيفية . وفي النهاية تُولف هذه الكتابة بين القراءة الخطية في الإنتقال المتتابع من شكل إلى آخر ، وكذلك القراءة « الموضوعية » الفضائية ، حيث يتوزّع البصر في مجال الإدراك ، فيبتدئ ضيقاً ثم ينفث بسرعة إلى دائرة أكبر فأكبر ، ممّا يكسب العين عادة في تضيق المجال وفي توسيعه على مستوى كل الإتجاهات .

ج . نساخ وانمكسات هذه التجربة :

يبدو أن تعويض الحروف الهجائية برسوم ثنائية (من نقطة وخط) أو ثلاثية (من نقطتين وخط) أمر هين ولعبة تركيب ولكن إضافة نظام في القراءة إلى الدلالة المحددة لكل حرف ، ثم يعد ذلك حمل النفس على تحصيل ملكة Faculté في قراءة هذه الكتابة ، بحيث تلجج العين في تصوير هذه الأشكال الصليبية والتي قد تتضمن عشرة حروف أو عشرين حرفاً ، وأكثر من ذلك ، أي أن هذا العدد يبقى مفتوحاً ومرتبطاً بالقدرة البصرية التي قد يمتلكها القارئ المتدرب ، ثم الوهمي بأن هذه التجربة تتعلّق (ب . .) وتجرى (على) حاسة ذات أهمية قصوى وعزيزة على الإنسان ، وهي « النظر » ، ومن خلاله القوى الذهنية والعصبية والجسمية والنفسية ... كل ذلك بضعا أمام مخاطرة ومغامرة ، ويفرض على المجرّب خطوات بطيئة ، وحذرة ، ومدرّسة .

ونظراً لكون هذه الكتابة مفتوحة ، فإن إتقان قراءتها ينتزّل على سلم له درجات متفاوتة : هناك المبتدئ الذي لا يقرأه إلا حرفاً بعد حرف ، في شكله الخطي والمتتابع ويصعوبة نسبية ، ثم بالتدرب على القراءة المركبة على الصورة الرباعية (الصليبية) ، ينجح القارئ أو لا ، في استنتاج صورة الكلمة في عينيه ثم كلمتين ، فجملة إلخ

ولكن النتائج المرجوة تبتدئ في الظهور بمجرد نجاح العين في حمل صورة لشكل يضم خمسة حروف فاكثر ، وعندئذ يمكن إجمال النتائج الحاصلة والأحقّة ، والمرجوة ، وأخيرا المتوقعة ، في هذه النقاط ، وذلك على سبيل الإتيان على أهمها وبدون تفصيل :

* سد الفراغ البصري : بالتدرب على قراءة هذه الكتابة ، يمكن للإنسان أن ينظر إلى كلّ شيء يمرّ أمامه ، ويحصل ذلك سواء كان شارد الذهن أو منشغلا بمسائل تشدّ انتباهه ، وإذا كان مهتماً بشيء جزئي ، فإن نظره بالرغم من ذلك يتمكن من متابعة الأجزاء الأخرى التي أمامه في الآن نفسه ، ويكل انتباه .

* تقليص زمن الإدراك : تنقلّص الفواصل الزمنية بين العين والمرئي والعين والماغ إلى حدّ تلقى فيه ، حتى يشعر الإنسان في نهاية الأمر وكأنّ الأشياء تضرب عينيه ، أو بينه وبينها جاذبية قويّة وصلة حميمة .

* السرعة الانية في تحريك الملاحظة من الجزئي إلى الجملي وبالعكس : إذ أن العين تعتاد على تركيب السريع للصور ابتداء من تركيب الحرف ، فالكلمة ، فالشكل الصليبي الكامل . إلى أن تصل العين في سرعة التركيب حدّاً تستطيع عنده أن تقوم باستنتاج أي صورة جُمليّة في شبكيّتها مهما كثرت أجزاها فتراها بأجزائها وكأنما هي بارزة للعين .

* القدرة على تنظيم الرؤية بكل إحكام : العين لا تقرأ « الكتابة المفتتة » إلا باتباع نظام في القراءة ، فإذا اعتادت على هذا النظام فإنه سنيحسب على طريقة نظرتها للأشياء ، فتحمل أي صورة في الطبيعة بكل قرائنها وعلاقاتها في شكل بديع التنظيم هو نظامها الأصلي الذي بنيت عليه . إلى حدّ الشعور بالغبطة والانسراح والاندماج عند النظر ، وهي متعة تكبر كلما كانت الأجزاء أكثر وأشدّ تنوعاً واختلافاً وأبرز تنظيماً .

* تقوية سلطة العين : تختلف النظرة الذكية عن النظرة الساذجة ، فنظرات الطفل تختلف عن نظرات الرضيع الذي لا يكاد يرى شيئاً ، ثم إن الراشد تكون نظره أكثر جرأة وحدة ... إذن ، فحدّة النظر تُكتسب بالاستعمال ، وتختلف نظرات الناس حسب ما تلقاه أعينهم من التدريب الذي يتم بصورة إتفاقية وعلى علاقة

بوظائفهم . ولكن في حالة إتقان هذا الخط سيكون التدريب مدروسا ونتائجه مُعلنة . وسيتضح به « ذكاء » العين إلى حدّ يمكن اعتبارها به عقلا مستقلا بذاته ، لأن العين تُجبر عند قراءة هذه الكتابة على أن تستوعب في آن واحد أكثر من ثلاثين دلالة وعلى الذهن أن يقوم بترجمتها في فاصل زمني لا يكاد يذكر (أو قل في لا زمان) . وذلك يمنح العين جرأة ، على النظر إلى الأشياء والأشخاص ، لم تكن من قبل ، حتى يبدو وكأنما العين تتكلم من صمتها ، ولها جاذبية تبسو من خلالها وكأنها إنسان داخل إنسان .

*** التفطن إلى أدنى حركة تحصل في مجال البصر :** إذ أن الاختلافات البسيطة التي تميّز الحروف بعضها عن بعض ، وهي تتعلق باختلاف المواضع أكثر ممّا تتعلق باختلاف الأشكال ، ثم إن التقاط الحروف بالعين في أوضاع مختلفة ، كما يلتقط الطير القمح من الأرض ، يجعل من الحركة مهما كانت كانت مفاجئة وضعيفة تقع تحت مجهر البصر وملاحظته .

*** الزيادة في التركيز إلى الحد الأقصى :** الإنسان بعد إتقانه لقراءة هذه الكتابة وتمكنه من التقاط الحروف أبعدت أم قُرِبت ، جملة واحدة وفي آن واحد . فإنه بعد ذلك إذا ما تمعّن في موضوع ما ، فإنه لقوة ملاحظته يشعر عند تركيزه وكأنه داخل الموضوع الملاحظ وغائب عن ذاته باستثناء ما يستحضره من قصد مرتبط بالرغبة .

*** سرعة رد الفعل :** التركيز الشديد بالعين يؤثر في كامل قوى الجسد ويجمعها عند الشروع في الفعل ، بحيث تعمل مجتمعة في تناسق كامل ، والمتقن لقراءة هذه الكتابة يتمكن من اكتساب ما يسمى بالاستشعار (أو توقع النتائج دون ترتيب المقدمات في الذهن) وإذا ما كان رياضيا تكون ردود أفعاله الجسدية سريعة صائبة وشديدة التناسق .

*** التأثير إيجابيا في كافة القوى الذهنية :** فالخيال والذاكرة القصيرة والانتباه ، الفطنة والذكاء وحضور البديهة والقدرة على التحكم والاتزان وقياس حركات الجسد ، الرويّة والتمعّن ، الجرأة في أخذ القرار ، القوة الذهنية في إقناع الناظرين إليك والاستحواذ على انتباههم ترتبط كلها وبشكل أساسي بقوة

التركيز والإحاطة بالنظر .

* تنشيط الغرائز : الجنسية والانتفاعالية، والعاطفية : الإنسان الذي يجد نفسه عند النظر أقرب ما يكون إلى الموضوع المرئي عند تسليط النظر عليه ، بل ويشعر وكأنه في داخله ، لابد وأن يكون كل غرائزه يقظة ومتحفزة ، ويجد في نفسه دافعا قويا من جسده للإنسجام معها . لذلك تجده في غاية الحساسية . ولـ « حسن الحظ » أن القوى الذهنية والقوى الغريزية تنمو معا عند إتقان قراءة هذه الكتابة ، ولأفان الاختلاف لصالح جانب تكون له بعض العواقب .

* تهذيب الحواس : إذ أن قراءة كتابة بحروف تفتقر عن بعضها بأدنى الفروق وتشد الانتباه بقوة وتزيد في التركيز ، يكسب كل ذلك الإنسان - بصفة عامة - عادة وقدرة على التمييز بين الأشياء مهما كانت متشابهة ، ويُسحبُ هذا الأمر على بقية الحواس الأخرى في التمييز بين الأصوات أو المنوقات والمشمومات والملموسات .

* الإطلاع على ما تخفيه نظرات الآخرين : يصير للنظر من القوة بحيث يستطيع أن يتغذ إلى أعين الآخرين فيقيس من خلالها قوة الشخص على رد الفعل ، ويحدس الخصائص الرئيسية في شخصيته ، ويتعرف بصورة إيجابية إلى معيّناته الذهنية والغرائزية .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

إن هذه النتائج المذكورة ليست حصرية ، وإنما تتفرّع عنها بالضرورة خصائص ومميزات أخرى كثيرة ، ومتشعبة تمس مختلف مجالات الحياة . ويمكنني القول : إن العلم في المستقبل سيولي أهمية كبيرة لهذا الموضوع تساوي أو تفوق الأهمية التي أولاهها ولا زال يوليها للزرة ، وستقترح مشاريع كثيرة لتدريب النظر وتقوية الملاحظة والتركيز ، ليُعرض تدريسها والتدرب عليها في كامل مراكز التعليم ، وذلك لتربية العين ولترويضها وحملها على اكتساب عادات في رؤية الأشياء كما يروى البدن بالرياضة والأذن بالموسيقى .

1) ورد « الدرس الأول » في مجلة الإتحاف العدد 46 فيفري 1994 .

من الحريات التي أقرها الإسلام

بقلم : د . عبد العزيز المجذوب

إن لكل فرد في المجتمع المسلم حق المساهمة في توجيه سياسة بلده ، والمشاركة في إدارة شؤونه ، ومراقبة ألوان التصرف التي تجري فيه سواء في ذلك على مستوى التنظير أو التنفيذ والتطبيق ... بشرط أن يكون الفرد ذا أهلية فكرية وسلوكية ترشحه لذلك وتجعله جديرا بأن يكون الناطق بلسان غيره ونائبا عنه في أمانة ويصدق .

ويظهر حرص الإسلام على توفير هذا الحق وإقراره وتحقيقه في كونه يرسى دعائم الحكم على أساس من « الشورى » والحرية السياسية لجميع المسلمين .
والله تعالى يأمر الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم أن يكون المثل المحتذى في أخلاقه وتصرفه وتعامله مع الناس - وإن كان كذلك بطبعه - حتى يصل بالأمة إلى إصلاح دنياها - ولا صلاح للأخرى إلا بصلاح الدنيا - يأمره بالعفو وبالتسامح مع من قد زلت به قدمه ، وأن يستغفر لهم الله ذو العفو والغفران . وأن لا يستبد برأيه ، لأن الإنسان لا يعدم صوابا وفائدة في رأي يشير به غيره . فعلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يشاور الناس في أمور دنياهم وشؤون حياتهم اليومية : فأمرهم شورى بينهم فيما ينهض بهم وينشاطاتهم وهم يزدرعون أو يتجرون ، أو فيما يستنبطون ويبتكرون مابه تستقيم حياة الفرد ، وتتبنى هيبة الجماعة ... كل ذلك في ضوء القيم الروحية التي جامع بها الوحي المنزل . وهذا شرط لازم وأكد ، وإلا فلا جديد في الأمر ، ولا معنى لمجتمع مسلم متميز بإزاء غيره من المجتمعات إن كان قوام أعمالها واحدا ، وتتفق فيها جميعا النوازع والواقف والغايات . قال تعالى مخاطبا نبي الرحمة وصاحب الخلق العظيم « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » آل عمران 159 .

يشاور الرسول صلى الله عليه وسلم الناس - خاصتهم وعامتهم - في أحوال معيشتهم وأمور الحياة اليومية ، وهذا من خصائصهم طبعاً . ولا يشاورهم في غير

ذلك ممّا أُوحي إليه وكُفّ بتبليغه وكُفّوا بقبوله والتسليم به . والعاقل يدرك شؤون دنياه ، ويعرف بحكم العادة والإلف والممارسة ما تستلزم شؤون دنياه ، ويعرف بحكم العادة والإلف والممارسة ما تستلزم شؤون الحياة من تنظيم وتخطيط وألوان من السّعي والنّشاط ، وفي هذا قال صلى الله عليه وسلم « أنتم أدرى بشؤون دنياكم » أو كما قد قال .

وما كان محمد بحاجة إلى هذه المشورة وهو الرّسول الموحى إليه من قبل ربّ العالمين الذي أدّبه فأحسن تأديبه ، ومع ذلك « فلم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » كما قد روى أبو هريرة . قال ابن عباس : « لما نزل قوله تعالى (وشاروهم في الأمر) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما إنّ الله ورسوله لغنيان عنها ، ولكن جعلها الله تعالى رحمة لأمتي ، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً ، ومن تركها لم يعدم غيّا » . فالقصد بهذا الأمر وهذا الخطاب في الآية رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً - وإن لم يكن في حاجة إليه - ثم أصحاب السّكّطة وأرباب الحكم من بعده في المجتمع الإسلامي . جاء في التّحرير والتّنوير « واجب على المسلمين المشاورة ، فيشاورون العلماء فيما يشكل من أمور الدّين ، ويشاورون وجوه الجيش فيما يتعلّق بالحرب ، ويشاورون وجوه النّاس فيما يتعلّق بمصالحهم ، ويشاورون وجوه الكتّاب والعمال والوزراء فيما يتعلّق بمصالح البلاد وعمارتها » 4 / 147 . ويورد ابن عاشور في هذا الموضع من تفسيره عن ابن العربي رأيه في المسألة وهو أنّ « الشورى مسبار العقل وسبب الصّواب » . يقصد أنّنا مأمورون بتحريّ الصّواب في مصالح الأمة ، وما يتوقّف عليه الواجب فهو واجب . كما يستشهد بما قاله ابن عطية وهو : « الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ، ومن لا يستشير أهل العلم والدّين فعزله واجب » . ويتبنّى الشيخ ابن عاشور هذا الرأي ويزيده بيانا فيقول : « ترك التّشاور تعريض بمصالح المسلمين للخطر والفوات ، ومحمل الأمر عند المالكيّة للوجوب » .

وممّا ينبغي تأكيده في هذا المقام - وقد سبقت إليه الإشارة - أنّ الآية تدلّ على أنّ الشورى أمر بها الرّسول صلى الله عليه وسلم فيما غبّر عنه « بالأمر » الذي يتمثّل في مهامّ الأمانة ومصالحها في حالتي الأمن والمخاوف المعبّر عنهما بحالتي السلم

والحرب ، أمّا في أمر التشريع فلا تشاور ، وذلك لأنّه لا مشرّع إلّا الله أولاً ، ثم لأنّ » التشريع إن كان فيه وحي فلا مناص من الامتثال إليه ، وإن كان عن اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم فلا تدخل فيه الشورى كذلك ، لأنّ شأن الإجتهد أن يستند إلى الأدلّة لا إلى الآراء ، والمجتهد لا يستشير غيره إلّا عند القضاء باجتهاده كما فعل عمر و عثمان ... » ، ويتابع كلامه مبيناً أنّه من باب أولى ألاّ يستشير الرسول غيره فيما يرجع إلى ذلك أي إلى اجتهاده في مجال التشريع ... فيقول : « وإذا كان المجتهد من أمته لا يستشير في اجتهاده فكيف تجب الإستشارة على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، مع أنّه لو اجتهد وقلنا بجواز الخطأ عليه فإنّه لا يقرّ على خطأ باتفاق العلماء » ابن عاشور : المصدر نفسه ، ومن المسلّم به أنّه صلى الله عليه وسلم لا يجوز في حقّه الخطأ في أمر الوحي وأمر التشريع وأمر التبليغ .

فالشورى - إذن - مجالها الشؤون المعاشية وما يربط بين الناس من مصالح متبادلة تعود على الجميع بالخير العميم . وأمّا غير ذلك من شؤون الوحي وما جاء به من « ثوابت » في العقيدة والشريعة والأخلاق ، ومن مقاييس أو أسس للتوجّهات الثقافية والاختيارات الفكرية فيؤخذ بالتسليم والإذعان : قال تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » الأحزاب : 36 . فالمؤمن الصادق لا يختار غير ما يقضي به الله ورسوله ، ولا يبحث عن بديل لذلك إلّا القاسطون ، وقوله تعالى « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » الحشر 7 ممّا يزيد الأمر بياناً وتأكيداً . فما قد أمرنا به الرسول وبلغنا من وحي نأخذُه مدعنين دون نقاش ، وما نهانا عنه نتركه دون تردّد . أليس الرسول يدعونا لما يحيينا ولما يضمن لنا حياة تسمو فيها الأرواح ، وتزكّى فيها النفوس ، وتستتير العقول ، وتدفع فيها الهمم نحو العمل الصالح والسعي الشريف المثمر : يدعونا الرسول لذلك بأمر من الله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » الأنفال 24 : ذلك أنّ ما يدعو له الرسول هو الأقوم ، وهو أوفق للضرورة وأجدى نفعاً وأحق أن يتّبع .

إنَّ « الشورى » كما بيّن القرآن الكريم تمثل دعامة من جملة الدعائم التي يقوم عليها المجتمع المسلم : قال عزَّ وجلَّ : « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلوة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » الشورى : 36 - 39 ، تلك هي ميزة المجتمع المسلم ، أو الأسس التي يقوم عليها نظامه .

والرسول الكريم قد امتثل للأمر الإلهي فأقام ركن الشورى الذي تقوم عليه الحرية السياسية ، وأمر بها غيره وحثَّ على ممارستها . سألته علي بن أبي طالب قائلاً : « الأمر ينزل بنا بعدك لم ينزل فيه قرآن ، ولم يسمع منك فيه شيء ؟ فقال : اجمعوا له العالمين من أمّتي ، واجعلوه بينكم شورى ، ولا تقضوا فيه برأي واحد » ، وفي رواية أخرى : « اجمعوا له العابدين من أمّتي » . وكان صلى الله عليه وآله وسلم يستشير السواد الأعظم من المسلمين حينما يكونون معه في الأمور العامة ، كما يستشير خاصته من أهل الرأي الرّسّخين في العلم ، استشارهم في الخروج إلى بدر ، وفي الخروج إلى أحد ، وفي شأن أسرى بدر ، كما استشار عموم الجيش في ردّ سبي هوازن ، استشارهم يوم بدر لما علم بخروج قريش من مكة لمحاربتهم ، ولم يبرم الأمر حتّى صرّحوا بموافقتهم ، لقد قام أبو بكر وقال فأحسن القول ، ثمّ قام عمر بن الخطاب فتكلم وأجاد ، ثمّ قام المقداد بن عمر فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى « اذهب أنت وريك فقاتل إنّنا ههنا قاعدون » المائدة 24 ، ولكن نقول : اذهب أنت وريك فقاتل إنّنا معكما مقاتلون ، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (مكان باليمن) لجالدنا معك من دونه حتّى تبلغه ، فقال له رسول الله خيرا ودعا له به ، ثمّ قال : أشيروا عليّ أيّها النّاس - يريد الأنصار - فقال سعد بن معاذ سيّد الخزرج : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله قال : أجل ، فقال سعد : امض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما ذكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنّنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء : لعلّ الله

يريك منا ما تقرُّ به عينك ، قسر على بركة الله . وحين وصل المسلمون إلى وادي بدر ونزلوا في مكان منه جاء الحباب بن المنذر فقال : يا رسول الله : أريت هذا المنزل ؟ أمزلا أنزلك الله ليس لنا أن نتقدّمه ولا أن نتأخّر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة . قال : يا رسول إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتّى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما رواه ، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأي . ونهض ومن معه من الناس وسار حتّى أتى هذا المكان .

واستشار الرسول صلى الله عليه وسلم في الخروج لغزوة أحد ، فأشاروا عليه بالخروج للقاء العدو إلّا عبد الله بن أبي فأتته رأى خلاف ذلك وأشار بالقعود والبقاء ، وقال : « أقم يا رسول الله ولا تخرج إليهم بالناس ، فإن هم أقاموا بشرّ مجلس ، وإن جاؤونا إلى المدينة قاتلناهم في الأبنية وأقواء السكك ، وربما هم النساء والصبيان بالحجارة من الآطام (الأبنية المرتفعة) ، فوالله ما حاربنا قط عدو في هذه المدينة إلّا غلبناه ، ولا خرجنا منها إلى عدو إلّا غلبنا » . ولم يوافق أكثر الصحابة على هذا الرأي مع أنّه كان رأي الرسول كذلك ، فدعوا إلى الحرب والخروج . فصلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة ، وبذل إثر الصلاة بيته ولبس سلاحه . فندم القوم وقالوا : ألقنا رسول الله إلى ما يكره . ولما خرج عليهم في سلاحه قالوا : أقم إن شئت فإننا لا نريد أن نكرهك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا ينبغي لنبيّ لبس لامته (درعه) أن يضعها حتّى يحكم الله » . وبذلك كان عليه الصلاة والسلام قد عمل برأي أكثرية أصحابه ، وترك رأيه لرأيهم .

كذلك كان أيضا شأن من تأدبوا بأداب الإسلام وتربوا على يد الرسول صلى الله عليه وسلم من صحابته الكرام الميامين ، كانوا لهذا « الحق » أو « الواجب » ملتزمين . من هؤلاء أبو بكر الصديق ، لقد قال للأنصار يوم اجتماع السقيفة : « نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتنون بمشورة ولا تقضى بونكم الأمور ! » . ويعد أن تمت مبايعته خطب في القوم فقال : « أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتوني على حق فأعينوني ، وإذا رأيتوني على باطل فسدّدوني ،

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم » . وقال في خطبة أخرى : « إنما أنا متبّع وأست بمتبّدع ، فإن استقممت فتابعوني وإن زغت فقوموني » ذلك ليعمل بما يأمر به الله وبما سنّه رسول الله .

ثم يأتي عمر بن الخطّاب فيخطب في المسلمين ويقول : « إنّ الله قد جمع على الإسلام أهله ، فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخوانا ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد ... أمرهم شورى بينهم بين نوي الرأي منهم » ، ويقول : « إن رأيتم في أعوجاجا فقوموني » ، فقام رجل وقال : « لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناك بسيوفنا » . فسرّ رضي الله عنه وحمد الله على ذلك . وكان يقول : « لا خير في أمر أبرم من غير شورى » . ولهذا كانت له شورى خاصّة من أعلام الصّحابة مثل عثمان وعلي والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمان بن عوف ومن مائتهم ، وكان يلحق بهم عبد الله بن عباس . كما كانت له شورى عامّة من كلّ من له رأي من المسلمين ، فيعرض عليهم الأمر في المسجد بعد أن ينادي بالصلاة جامعة ، فيقول كلّ فرد من الحاضرين ما بدا له من رأي في حريّة .

وقد كان اختيار الخلفاء الرّاشدين قائما على أساس بناء الأمة وحريّتها في الاختيار . وإذا كانت طريقة الشورى وأساليبها في ذلك قد تنوّعت فلاختلاف الظروف والأحوال التي أحاطت باختيار كلّ منهم . وكان رائدهم دائما تحقيق المصلحة العامّة وتوفير الحريّة السياسية القائمة على « الشورى » في صور متنوعة من غير مساس بأصلها وجوهرها وحقيقتها .

والشورى التي تجسّم الحريّة السياسية وتحقّقها واقعا ملموسا واجبة في الإسلام ، وهي ركن مكين من الأركان التي يقوم عليها نظام الحكم في الشريعة الإسلامية ، فرأي أهل الشورى ملزم للحاكم . يقول ابن عطية في تفسيره : « الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ، من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب ، وهذا مما لا خلاف فيه » . وينقل ابن عاشور في تفسيره عن ابن خوزيم مناداه قوله : « واجب على الولاة مشاوراة العلماء فيما لا يعلمون ، وفيما أشكل عليهم من أمور الدين ، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب ، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ... » . ويقول الأستاذ الإمام محمد عبده : « أمر الله تعالى

نبيه أن يقرن سنة المشاورة في هذه الأمة بالعمل ، فكان صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه بغاية اللطف ، ويصغي إلى كل قول ، ويرجع عن رأيه إلى رأيهم . « بل لقد ذهب محمد عبده إلى أكثر من ذلك فرأى قول الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » آل عمران 104 أول دليل على أن الحكومة الإسلامية تقوم على الشورى وأنها أقوى في دلالتها على ذلك من قول الله تعالى « وشاورهم في الأمر » وقوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » . لأن أمر الرئيس بالمشاورة وإن كان يقتضي وجوبها عليه إلا أنه لا يوجد ضمان لامتنثال هذا الأمر ... أمّا قوله تعالى « ولتكن منكم أمة ... » فيفرض على المسلمين أن تكون منهم جماعة متّحون أقوياء يتولّون الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهم « أهل الشورى » (النقول من تفاسيرهم لقوله تعالى وشاورهم في الأمر) .

وتتابع وقوفنا على ما جاء في تفسير المنار ، فإن فيه ما يفيد وجوب الشورى ولزوم العمل بنتائجها ، يقول محمد عبده : « (وشاورهم في الأمر) أي الأمر العام الذي هو سياسة الأمة في الحرب والسلام والخوف والأمن وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية ... أي تم على المشاورة وواظب عليها كما فعلت قبل الحرب في غزوة « أحد » . وإن أخطأوا الرأي فيها فإنّ الخير كلّ الخير في تربيتهم على المشاورة بالعمل ، دون العمل برأي الرئيس وإن كان صوابا لما في ذلك من النفع لهم في مستقبل حكومتهم ، فإنّ الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد في الأكثر ، والخطر على الأمة في تقويض أمرها إلى الرجل الواحد أشدّ وأكبر » . فهذا هو الرأي الذي تدلّ عليه النصوص القرآنية وتفيده ، فقد أمر الله سبحانه بالشورى ، والأصل في « الأمر » أن يكون للوجوب إلا إذا كان بقرينة تحوله إلى معنى التنب ، ويؤكد الأمر الوارد في قوله (وشاورهم في الأمر) قوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) كبيان لأوصاف الجماعة الإسلامية وخصائصها .

وإذا كان بعض العلماء قد ذهب في تفسير الآية إلى أن شورى الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه إنّما كانت تطبيقا لخواطرمهم وتاليفا لقلوبهم وتربية اجتماعية لهم ... لا ليعمل الرسول بها أو هي مفروضة عليه نظرا لعدم حاجته

صلى الله عليه وسلم إليها ما دام الوحي يرعاه ويسدّد رأيه وخطاه ... فليس معنى هذا تعميم الحكم لغيره من الحكام والمسؤولين على اختلاف مستوياتهم لوجود الفارق الجوهرى بينه عليه الصلاة والسلام وبين غيره ، وإلى ذلك يشير الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « أما إنّ الله ورسوله لغنيان عنها ، ولكن جعلها الله رحمة لأمتي . فمن استشار منهم لم يعدم رشداً ، ومن تركها لم يعدم غيأً » ، فالرشد قرين الاستشارة والغيا قرين تركها .

إنّ المسؤول - أي مسؤول كان - وكيل عن الأمة ، ومقتضى هذه الوكالة أن يعمل بإرادة الأمة ورغبتها ويتوجبه وإشارة منها لا برغبته وإرادته . ورأي الأمة - ممثلة في أهل الشورى - أقرب إلى الصواب وأبعد عن الخطأ من رأي الحاكم إذا ما اختلف رأياها عن رأيه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر : « لو اجتمعنا في مشورة ما خالفكما » .

وإذا كان الحاكم - وهو رأس الأمة والحارس لمصالحها والحريص عليها - يرى في أهل الشورى بعدا عن الصواب والمصلحة فليس أمامه إلا أن يطرح وجهة نظره ويدافع عن رأيه مع الاستماع إلى الرأي المخالف وحججه ، فقد تقتنع الأمة برأيه وتقبل عليه ، وقد يحصل العكس فيقتنع هو برأياها ويركن إليه . وشاهد ذلك ما حصل من أبي بكر الصديق ، فقد رأى مقاتلة المرتدين عن الدين الذين امتنعوا عن أداء الزكاة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، رأى ذلك دون أن يجد من الصحابة موافقة تامة على ذلك . فاستمر في الدفاع عن رأيه حتى يقتنع أهل الشورى به وقد حصل ذلك ، وعبر عنه عمر بقوله : « والله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنّه الحق » . وهو موقف لا يتنافى مع الديمقراطية والحرية السياسية ، بينما نرى أبا بكر في أمر جمع المصحف يرجع عن رأيه إلى رأي الصحابة . فقد تحرّج من ذلك في بادئ الأمر محافظة على القرآن الكريم وخوفاً عليه من الضياع وقال : « كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ؟ » ، وهو ما زال عمر يقنعه ويقول له : إنّ الله خير ومصالحة للإسلام حتى استجاب للأمر وقام على تنفيذه .

إنّ السلطة في نظام الإسلام هي سلطة النصّح والموعظة الحسنة والدعوة إلى

الخير والفضيلة والتسامح والإخاء ، والتنفير من الشرّ بجميع ألوانه ومظاهره وأشكاله ، وهي سلطة خوكها الله لأدنى المساهمين يحاسب بها أعلامهم ، كما خوكها لأعلامهم يتناول بها أدناهم .

إنّ مبدأ « الشورى » ليس وليد ما يسمّى « الديمقراطية » ، ولا هو من آثار الثورة الفرنسية أو قوانين « بوناپارت » . إنّ الشورى من الإسلام وأصل ثابت من أصول تشريعه الاجتماعي والسياسي . فرضها القرآن ومارسها الرسول عليه الصلاة والسلام ومن جاء بعده من الخلفاء الراشدين والصّوّفة من أنتمة المسلمين في مختلف العصور . وإذا كان بعضهم قد قصّر وأثر الاستبداد بالرأي والاستئثار بالحكم المطلق ... فليس ذلك حجة على الإسلام ولا هو ممّا يفضّ من تعاليمه .

إنّ المشورة تدرج ضمن مقصد هامّ من المقاصد الأصليّة التي أنزل القرآن لتبليانها ، ويبين الشيخ ابن عاشور هذا المقصد في المقدّمة الرابعة من مقدمات تفسيره فيقول : إنّ « سياسة الأمّة ، وهو باب عظيم من القرآن القصد منه صلاح الأمّة وحفظ نظامها كالإرشاد إلى تكوين الجامعة بقوله : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا وأذكروا نعمة الله عليكم إذا كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » وقوله « إنّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء » وقوله : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » وقوله « وأمرهم شورى بينهم » التحرير والتنوير : 1 / 40 .

فأمر المسلمين شورى بينهم فيما يصلح معاشهم ويحقق أمنهم ومناعتهم ، يتبادلون الرأي في شؤون دنياهم ، ويتدارسون المشاكل متعاونين على فضّها بالحوار النّزيه في ضوء ما ثبت من تعاليم الدّين وأصوله . ويمحص أصحاب الرأي وأهل الحلّ والعقد منهم ما يجد من أحداث أو ما يرام من مقرّرات ، ثمّ يصبح ما يقع عليه الإتفاق إجماعا ، وهل الإجماع إلّا نتاج المشورة أوّلا وآخرًا .

فن الكتابة ومواصفات الكتاب من خلال الرسالة العذراء لابن المدبر (الجزء الثاني)

بقلم : خليفة الخياري

3. مواصفات الكاتب الأمثل :

عند أبو اسحاق إلى إحصاء جملة من الصفات ينبغي أن يتحلى بها الكاتب عند تقلده هذه الخطة الجليلة ، وهو بذلك يرتقي بالكاتب من طور الإعداد إلى طور الاعتماد . ففي مرحلة إعداد الكاتب تحتل المعرفة المقام الأول . أما في مرحلة الاعتماد ، فالمطلوب أولاً أن يطلع الكاتب على النسق الذي يجري على وقعه العمل ، وبعض خوافيه التي لا يفقه كنهها إلا ذوي أصحاب التجارب. لذلك نجد المواصفات المطلوبة في الكاتب منقسمة هي الأخرى إلى قسمين: قسم نظري وقسم عملي. لكن الثاني يسبق الأول في هذا المستوى تبعاً لتأمل الكاتب للاستفادة مما اكتسبه بالتلقن .

* المواصفات العملية : <http://Archivebeta.Sakhril.com>

إهتم ابن المدبر في طليعة تعداده للمواصفات العملية بهيئة الكاتب من حيث تركيبته الجسدية ، وسجاياه الخلقية في مرحلة ثانية . ثم بمظهره الخارجي لرسم صورة نموذجية للكاتب الذي يمكن الاعتماد بصنعتة :

المواصفات الشكليه	المواصفات الأخلاقية	المواصفات الخلقية
<ul style="list-style-type: none"> - ملاحه الزي - بهاء الملبس - نظافة المجلس - عطر الرائحة 	<ul style="list-style-type: none"> - العلم بحلال الكتاب والسنة - وحرامهما - التأدب - صدق الحس 	<ul style="list-style-type: none"> - صحة القريحة (1) - دقة الفهم - خفة الروح - حذق الحس

- ركوب الكرائم - تناسق الهيئة - عدم إطالة اللحية	- التواضع - المروءة	- اعتدال القامة - صغر الهامة (الرأس) - خفة اللهازم - كثافة اللحية - عنوية جريان الكلام - على اللسان .
--	------------------------	--

وهي مواصفات تجعل الكاتب خلاصة صورتين نموذجيتين صورة الملوك في تأنيقهم وتأنيقهم وتديّنهم ... وصورة العامة في تواضعهم وطاعة من هم أعلى مرتبة وأسمى منزلة . وما تجدر ملاحظته أن هذه المواصفات مستمدة من مرجعين : أولهما كلام الحكماء القدامى في محاولتهم إحصاء العلامات الجسدية التي كلّما توفّرت في الإنسان شُهد له بالنكاه والفتنة ... وثانيهما دراية ابن المدبر وهو الكاتب الضليع ، بما يروق في أعين الخاصة ، وما يمكن من المحافظة على منزلة مرموقة ضمن الحاشية .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

أمّا الجانب الثاني من المواصفات العملية اللازمة لاكتمال آلة الكتابة فتشمل الأعداد الجيد لأدوات العمل : « واعلم أن أولك ما ينبغي لك . أن تصلح ألتك التي لا بدّ لك منها وأدواتك التي لا تتمّ صناعتك إلّا بها » (2) هذه الأدوات مطلوب من الكاتب أن يحرص على اتقان احضارها ، وترتيبها كالآتي :

أ - تجهيز الدواة : ويتمّ ذلك بإحضار اللّيقة (وهي تتغف من الصّوف توضع في الدواة لامتصاص الحبر) والمداد الفارسي ، والصنّغ العربي ، والعفص المسحوق ، ورماد القرطاس المحترق ، وبياض البيض ، وماء السلق وهي جملة المكونات الطبيعية للمداد الذي لم يعد اليوم معروفاً إلا من خلال المخطوطات القديمة وبعض الاستعمالات الخاصة عند المؤدّبين .

ب : صناعة القلم : ويتمّ ذلك بانتقاء أنابيب القصب القابلة للبري بديلا عن الأقلام الفارسية المعدة لنوع خاص من الورق . وباستعمال السكين الطواويس لجودته

وحدثه . والبري من ناحية منبت القصبه . (3) واختيار أنواع الأقلام بناء على نوعية المكتوب ومنزلة المكاتب . وقد أورد أبو اسحاق بعض أنواع الأقلام الخاصة كالقلم المحرف الكوفي للسجلات وكتب الملوك ، وقلم اللآزورد للعلماء والنواب ...

ج : تجويد الخط : وهو موضوع يشترط استكمال النصائح السابقة ، والثاني في رسم الحروف ، وعدم النقط والشكل ما عدا في الحروف المعضلة (أي المتشابهة مع غيرها بحيث لا تميز بينها إلا بأعجام بعضها) واستعمال التراب بدل نشارة الخشب للتجفيف . وأهم ما في هذه النقطة أن الكاتب كان واعيا بالقيمة الوثائقية لهذه المكاتيب عبر التاريخ : « لأن الكتب تقرأ في الأماكن المتباينة والبلدان المنفردة وتدرس في كل عصر وزمان ويكلّ لسان ... » (4)

د - التوثيق : وهو التأريخ لزمان كتابة الرسالة ومكانها : « فإنه يدلّ على تحقيق الأخبار وقربها وبعدها .. » (5) ويتم ذلك باتباع طريقة محددة تتمثل في عدّ الأيام الماضية من الشهر إذا كانت أقلّ من الأيام المتبقية فيه والعكس بالعكس ، وتسبيق المعلوم من الأيام على المجهول لأنه يصعب التنبؤ بتمام الشهر أو نقصانه .

هـ - الطي والختم (6) : ويستحسن استعمال السحاة الرقيقة (وهي ما يشدّ به الكتاب) ولا تستعمل الغليظة إلا للعهود والسجلات التي يحتاج الكاتب إلى خواتمها وطوايعها . ثم اختيار الطينة للطبع . وضرورة أن يكون الكاتب على دراية بعلم إلصاق القراطيس ومحوها . والملاحظ أنه يمكن النفاذ إلى النصّ المختوم رغم كل هذه الإجراءات . إلا أن أبا اسحاق يرفض توضيح الوسيلة ويعتبر ذلك سرّاً يجب أن يظلّ حكراً على الكتبة : « وأما قراءة الكتب المختومة والتلفّ لنقض خواتمها فمما لا نذكره خوفاً من سفيه . » (7)

و - التعمية والتموهية : وهي وسائل واقية للأسرار المضمّنة وحافضة لها من الانكشاف والتجليّ إلا لمن هي مرسلة . وهو عالم سلفاً بالوسيلة التي يمكن الاستعانة بها لفك الرموز الخطية ... ومنها طريقة تبديل الحروف تبديلاً يخفي معانيها وهي من ابتكار أبي حاتم سهل بن محمد . (8) . ويقترح صاحب العنراء طريقة بديلة يراها أنجع وهي الكتابة باللّين الطيب واستعمال الرّماد الحار لظهور الخط . والكتابة بمرارة السكّحفة وهي كتابة على حدّ تعبيره « تقرأ بالليل ولا تقرأ بالنهار » (9)

* المواصفات النظرية :

وهي امتداد للشروط النظرية المبينة في عنصر الكتابة لكنها في هذا المستوى تقوم على تسليم مسبق بأن الثقافة الموسوعية قد اكتسبت الكاتب شخصية مدركة لطبيعة العمل وحدوده ، وذائقة مميزة لما يجوز في المكاتيب وما لا يجوز بناء على مقاييس اتباعية إذا كانت الإجازة متعلقة بمسألة سبق أن وقع درسها أو العمل بها . ثم بناء على مقاييس منطقية إذا كان الأمر يهم موضوعاً مستحدثاً .

فمما يجب الاقتداء فيه بالسلف اتباع منهج القدامى في تصدير الرسائل وافتتاحها وختتها : « وأما صدور السلف فإنما كانت من فلان بن فلان إلى فلان ، كذلك جرت كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العلاء بن الحضرمي ، وإلى أقيال اليمن وإلى كسرى وقيصر (...) حتى استخلص الكتاب هذه المحدثات من بدائع الصنور (...) وجروا على تلك السنة الماضية إلى عصرنا هذا (...) وثبتوا على ذلك المنهاج في كتب الفتوحات والأمانات والسجلات . » (10) ومن ضروب الاقتداء عدم إجازته تضمين الشعر في المراسلات ، فما اغتفره السابقون للشاعر عند الضرورة قد يخل بالمقاييس الدقيقة المشترطة في الرسائل : « وذلك كله غير مساغ في الرسائل ولا جائز في البلاغات » (11) . وينسجم رأي أبي اسحاق كذلك مع السلف في عدم جواز مخاطبة المرسل إليه بضمير المفرد المخاطب :

« ومما لا يجوز في الرسائل وكروهه في الكلام أيضاً مثل قولهم : كلمت إياك وأعني إياك ... » (12) ، وقد بلغ باتباع سنن الترسل القديمة أن أعاد بعث المتغير منها والمندثر لغرض ما . من ذلك أحيائه سنة افتتاح المكاتبات بالصلاة على النبي بعد أن أمر بنو أمية كتّابهم بأطراح هذه الجملة من كتبهم . وكان سنده في ذلك وعصيته قول الرسول الكريم : « لا تجعلوني كقدح الراكب ، ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره » (13)

أما ما يجب الاحتكام فيه لأراء المناطق ، فعلاوة على كونه يمثل آراء منهجية وأسلوبية ، يمكن أن نستشرف منها مبدأً نقدياً متكاملاً لا ينطبق على الرسائل فحسب بل يشمل الكتابة بمفهومها العام ويطال أحياناً الأغراض الأدبية الثابتة مثل نقده مدح الملوك بما هو واجب على كل الناس . لأن ذلك ينبغي أن يتوفر في الملك

بالطبيعة أولاً ، ثم أنه يسوّي بينه وبين العوام . وإنّما يمدح الحاكم بالخصائص
المفارقة والمناقب التي خُصَّ بالملك من أجلها ... وقد ساعدته آلة المنطقة على عدم
القول ببعض ما أجازته السّابقون مثلما يتجلّى في موقفه من موضوع تصغير
الاسماء : «> وكذلك في الرّسائل ينبغي ألاّ يصغّر الاسم في موضع التعظيم وإن كان
ذلك جائزاً مثل قولهم : ذويهية تصغير داهية > (14) . إذ يضع بذلك للإجازة حدّاً
. لأن إجازة التصغير في موضع التعظيم إجازة لغوية في الأصل ونحوية بالأساس
 . فمن معاني التصغير التعبير عن عظمة الشيء وأهميته ، مثلما نقول : كُتِبَ تعبيراً
عن جلاله ما يحتويه من معارف مبطنة في حجم صغير ... ولعلّ انتصار ابن المدبّر
للقاعدة المنطقية على حساب القاعدة المستجازة يشي بصدى ذلك الجدل الشهير
بين علماء المنطق وفقهاء النحو حول حاجة أصول النحو إلى المنطق وعدم احتياج
المنطق إلى النحو في اثبات القواعد وإيتاء البراهين ... (15) واستناداً إلى نفس
الآلة يميّز بين مواضع الألفاظ وضرورة مشاكلتها للمعاني من حيث الدلالة درما
للشبهات اللغوية عندما تتّسع دلالة الكلمة أو حينما تشهد دلالتها تحوّلاً بتأثير من
القاعدة الاشتقاقية : «> فإنّ وضع الألفاظ في غير أماكنها وقصدك بها إلى غير
نصابها إنّما هو كترقيع الثوب الذي إذا لم تتشابه رقايعه ولم تتقارب أجزاؤه خرج
من حدّ الجدّة وتغيّر حسنه . > (16)

إلاّ أنه إضافة إلى هذين المقياسين : الاتباعي والقياسي المنطقي ، يمكن الحديث
عن مقياس تجريبي به تستكمل كلّ عناصر نظرية الكتابة عند ابن المدبّر . ونسميه
تجريبيّاً لأن مصدره الوحيد التجربة الشخصية. ولا نفغله في هذا المستوى لأنه
يوعز بدقة المبدأ النقدي لدى أبي اسحاق ومدى تطوّره في حقبة ما زال فيها النقد
الأبوي عند العرب برعماً في أوّل أطوار تكوّنه . فانبثاقاً من تمرّس صاحبنا بآراء
الكُتّاب واحتكاكه بتجاربيهم توصّل إلى استخلاص ثلاث قيم أدبية لا غنى للكاتب
عنها ولا مناص له من التحلّي بها :

أ - الموضوعية : ولها صلة غير مباشرة بالمنطق . وهي تحذير الكاتب من أن يخرج
به الزّهو عن اعتداله وأن يشغله التّبالغ عن الإفصاح : «> فلا تدعوك الثقة بنفسك
والعجب بتأليفك أن تهجم به على أهل الصناعة فإنك تنظر إلى تأليفك بعين الوالد

لولده والعاشق إلى عشيقته» (17) وهذا الرأي ظلّ إلى يومنا مبدأ نقديا مطلقا ومسلّمة محلّ اجماع النّاقد والمبدع على حدّ السّواء .

ب- عدم الاعراض عند آراء النقاد : وهو من أوجه الموضوعية وإنما ميزناه لعرض ظاهرة طريفة كثيرا ما عمد إليها الأدباء لمعرفة قيمة مؤلفاتهم ، والدّارسون لاكتناه أهمية مصنفاتهم . وملخص الطرفة أنّ أبا اسحاق يطلب من الكتاب عرض رسائلهم على النقاد - والنّاقذ في الرسالة هو كل بليغ متفقه في اللغة شاعرا كان أم خطيبا - يعرضها لئلا ينسبها إلى نفسه فإن شددت الأبصار واستقطبت الانتباه ولاحت على الوجوه علامات الاستحسان يعلم أنّه بلغ الغرض . أمّا إذا انصرفت عنه العيون وولّت القلوب، فتلك علامة عن خطئه وعدم إصابته أسرار الصّناعة . فيكون بذلك قد لامس جانبا من نظرية خطيرة هي الآن بصدد التوضّح وهي ما يصطلح على تسميتها بنظرية التّقبّل في البحث عن أثر حضور مقولة القارئ في ذهن الكاتب أثناء انجاز النّص . وتأثيرها من ناحية ثانية في النّاقذ أثناء تفحصه للأثر . وقد أفضى هذا بصاحب العذراء إلى التبرّم بما ينشأ عن توتّر العلاقة بين المؤلّف والنّاقذ : « وإنّما البليّة فيمن إذا بيّنت له سوء نظمه واختياره ، ووقفته على سخافة لفظه هجره وعاداك » (18) <http://Arc>

ج- تحديد جنس المتقبّل : ورد هذا التحديد في سياق الدعوة إلى عدم استعمال أنوات الاعجاز اللغوي المستمدة من القرآن مصدر الفصاحة الأوّل ، كالاقتصار والحذف ومخاطبة الخاصّ بالعام ، والعام بالخاص ... ففي البحث عن المبرّر المنطقي لهذا الرأي الممهّد لقضية الاختلاف في تعريف البلاغة وتنوّع تعريفاتها وهي مسألة شغلت حيّزا معتبرا في الرسالة ، أورد ابن المدبّر العبارة التالية : « والرسائل إنّما يخاطب بها قوم دخلاء على اللغة لا علم لهم بلسان العرب » (19) ولئن كانت العبارة غير كافية لتكون مبررا منطقيا ولا مقنعة وحدها بضرورة توخّي السهولة في انتقاء الألفاظ والسلاسة في تركيب التعابير ، فإنّها قد أبانت عن مخاطب محدّد في ذهن ابن المدبّر وهو الدخيل على لغة العرب أي من شمله الفتح ولم يتمرّس بعد بخصائص اللسان المضري . ويبدو أن مقصده من تحديد جنس المتقبّل لا يعدو أن يكون أداة لتعريف آراءه في البلاغة والتي هي امتداد لآراء صديقه

الجاحظ الذي أولاهما اهتماما كبيرا في مصنفيه: البيان والتبيين والحيوان . لا سيما وأن المصنف الأول كان مرجعا بارزا في أكثر من موضع من مواضع الرسالة ومعينا لتأكيد أكثر من موقف : « قال الجاحظ : ما رأيت قوما أمثل طريقة في البلاغة من هؤلاء الكتاب فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا . » (20) ومدار هذه الآراء مناقضة التصنع والتأنق والتععر والأغراب في التعبير : « والكاتب المستحق اسم الكتابة والبلغ المحكوم له بالبلاغة من إذا حاول صيغة كتاب سالت على قلمه عيون الكلام من ينايبيها وظهرت من معاندنها ونذرت من موطنها عن غير استكراه ولا اغتصاب . » (21)

* زمن التفكير ومظان التعبير :

لما كانت الكتابة على هذا القدر من الدقة ، وصناعة الرسائل على هذه الدرجة الفنية السامية التي تخلو من الهام ، لم يغفل ابن المدبر الحديث عن زمن الكتابة أو بعبارة أوضح عن الوقت الذي تسلس فيه العبارة ويصفو فيه الذهن للكتابة . وقد كانت آراؤه بمثابة الوصفة المضادة للعي والتعسف والتكلف وما إليه من مسببات الخلط والهنات التي تمنع الكتاب من أن يكون على الشكل النموذجي الذي يتصوره أبو اسحاق . وأول ما يتلافى به ما سبق : « أن يترصد الكاتب فراغ قلبه وساعة نشاطه . لأن سماحة النفس بمكوناتها وجود الأذهان بمخزونها ، إنما هو مع الشهوة المفرطة في الشيء والمحبة الغالبة فيه أو الغضب الباعث منه ذلك » (22) أما إذا استعصت العبارة وغامت الفكرة وانعدم من نفس الكاتب التوق إلى لذة التعبير ، فهو مخير بين رأيين : إما التخلي عن القلم : « فلا تنض مطيتك في التماسها ولا تتعب بدك في ابتغائها وأصرف عنائك عنها » (23) وإما التماس أنوات تحرك في النفس سواكن رغبته وتحذوها للمرام الذي استعصى على الكاتب ... وأنجعها القراءة : « على أن كلام العظماء المطبوعين ودرس رسائل المتقدمين ، على كل حال ، مما يفتق اللسان ويوسع المنطق ويشحذ الطبع ويستثير كوامنه إن كانت فيه سجية . » (24) فزمن التفكير إذن لحظة تقتنص اقتناصا . ومفتاح مظان التعبير يتوسل إليه بقراءة النص البارع سبكاً والجيد حبكة . وهذا يعني أن الكتاب النموذجي هو ثمرة لحظة التذاذ مسبقة برغبة ناتجة عن معايشرة

جميعية للنصوص المستفزة بجمالياتها الكوامن النفس والمستنهضة لخوافي الفكر .

4- مصادر معايير المتابعة عند ابن الدبر :

لقد تطلبت هذه الرسالة من ابن الدبر حشدهمونة ضخمة من الشواهد المؤيدة والأقوال المؤكدة لكل ما يذهب إليه . وقد طغت المصادر النظرية طغيانا جلياً مقارنة بالمصادر التطبيقية . ذلك أن الاستدلال بالتجارب الخاصة والعبر المستخلصة لا يمثل إلا سدس الشواهد المضمّنة . وهي نسبة ضعيفة جداً من منطلق إحصائي ، ومقارنة بالمناهل النظرية التي امتع منها الكاتب .

* المصادر النظرية :

وتشتمل على مجمل الأشعار والأحاديث المروية عن الرسول والأقوال الماثورة والحكم الجارية وروايات الكتاب المجالين لعصر صاحب الرسالة والسابقين وأوامر الملوك والأمراء لكتابهم ... بيد أن هذا الكم المتنوع من الشواهد لا يمنع من تبين مصدرين كان لهما التأثير الأعظم هما : الفكر المعتزلي والفلسفة اليونانية .

فالفكر المعتزلي بنزعته العقلانية نلمس أثره من خلال استشهاد المؤلف بأقوال عمرو بن عبيد وهو من أئمة المعتزلة أولاً . ثم تكثيفه الأقوال المستمدة من مصنّفات الجاحظ والمستندة إليه إما مباشرة أو عن طريق رواية بحيث بلغت الشواهد المنسوبة إليه عشرة شواهد (25) وذلك يعكس تلك الألفة والمودة التي كانت بين الرجلين والتي يختصرها قول للجاحظ موجّه لأبي اسحاق : « ما ضاء لي نهار ولا دجا ليل مذ فارقتك ، إلا وجدت الشوق إليك قد حرّ في كبدي ، والأسف عليك قد أسقط في يدي ، والنزاع نحوك قد خان جلدي » (26) .

أمّا تأثير الفلسفة اليونانية فيحضر في الرسالة معتمداً في الأقوال المنقولة عن أرسطو وهي خمس مقالات حسب ما أثبت زكي مبارك في فهارس الرسالة . فإذا أضفنا إليها مجموعة الحكم الهندية والفارسية واليونانية والرومية ، يتنزل المورد الأعجمي في المرتبة الثانية تليها الأحاديث المروية عن الرسول وعن الخلفاء المسلمين ، وينفس الكثافة تتعادل هذه المؤثرات في مراتبها الثلاث مع الشواهد الشعرية لأعلام أغلبهم من شعراء صدر الإسلام ، فالشعراء المقلّين أو الذين اشتهروا بكتاباتهم النثرية أكثر من الشعرية ... وفي هذا السياق لابد من إثبات ملاحظتين

من أجل تفحص مضامينها تفحصاً منهجياً ، اخضعناها لهذا التخطيط . وحتى لا ننساق وراء أفكار المؤلف والقائمة على التداعي الذي يخالف في أحيان كثيرة ترتيب مواد الرسالة المبينة في الفقرة الأولى منها ... تعمّدنا الفصل شكلياً بين ما يهم الكتابة فناً من ناحية . والكاتب مندوباً لهذه الخطّة من ناحية ثانية .

* دلائل البعارة :

إذا صحّ أنه لم يسبق ابن المدير إلى هذا الموضوع سوى عبد الحميد في رسالته إلى الكتاب ، وهو ما تؤكّده المراجع وحسب ما تمّ تحقيقه من هذه المدوّنّة ، فإنه من اليسير إثبات عذرية هذه الرسالة أسلوبياً ، وقد حقق أبو اسحاق نقلة نوعية من خلال صياغة الموضوع صياغة أساسها التحليل والتعليل تقطع مع أسلوب الخطب وتنزع نحو التدرج المنهجي في عرض الأفكار بناء على وعي عميق بالفوارق بين ما هو معدّ للمشافهة (الخطب) وما هو منجز للمكاتبة (الرسائل) ويمكن أيضاً اثبات ما تقدّم من خلال كثافة مراجع هذه الرسالة وغلبة المنزع العقلي عليها ، والذي مكّن المؤلف من إرساء أهمّ مقوّمات النظام الإداري مما حدا بكاتب الفصل الخاص بابن المدير في دائرة المعارف الإسلامية لأن يعتبر الوثيقة : « من أعرق التحاليل المعالجة للتنظيم الإداري والوظيفي » (28) هذا إلى جانب الفارق الجوهرى بين مفهوم الكتابة الذي يعيل إليه عبد الحميد والذي لا ينفصل عن المعنى الأدبي للكلمة : [L'écriture] وبين المفهوم الوظيفي الذي يذهب إليه ابن المدير [Sécrtariat] . (29) ومهما تكن درجة الاتفاق أو الاختلاف بين عبد الحميد وابن المدير حول فضيلة الكتابة ومناقب الكتاب ، فإن الأول قد استغنى بالدعائم الدينية والأدبية عن المستندات الفكرية وحصيلة الممارسة العملية . وهي وحدها التي سمحت للثاني بالذهاب أبعد ما يمكن في إبراز خوافي الأوراق وعلاقة حملة القلم فيها بذوي النفوذ المطلق ممّا بوأها في هذا الأثر مكانة جليلة تسمح للباحث بالاستفادة من هذه الوثيقة اجتماعياً وسياسياً وفكرياً ، علاوة على ما تزخر به من معلومات تثبت ما بلغته الحضارة العربية الإسلامية من رقيّ في حقبة زمنية وجيزة لأنه لا تقاس أعمار الحضارات بالسنين مهما تعدّدت وإنّما بنسق تطوّرها المعرفي وغناها الفكري .

* الخاتمة :

كشفنا النقاب في الجزء الأول من هذا العمل عن ملمح من ملامح الكتابة الثرية في بداية تشكّل مفهومها متراوحة بين دلالاتها الأدبية والفكرية من ناحية والوظيفية من ناحية ثانية . وتوصلنا إلى أنّ استلهاهم مختلف المعارف الإنسانية ضرورة لاحتياجها للاختصاص في هذا الفن وهما عبّرنا عنه بشروط البلاغة وأسباب البراعة ، التي تمثل المهاد الأساسي لكلّ طالب علم والنافذة الوحيدة المفضية إلى اكتناه أسرار الكتابة واستخلصنا في الجزء الثاني صورة الكاتب البارع وكيف تتشكّل في ذهن صاحب العذراء مستوفية لكل لوازم الصناعة وشتّى شروط الاعتماد ... وقد توسّلنا للغوص في الرسالة بمناهج متنوعة لأن أسلوب صاحبها على بساطته الظاهرة عصيّ أمنيّ لا يسمح للباحث ببلوغ دررها دون تحيّل ومراودة . فكان أنّ فككتنا اشتباك مقومات الفن بعناصر صورة المتفنّن كما يراها ابن المدبّر . ثمّ فصلنا الآراء النظرية عن العملية في مراحل ثلاث (الإعداد ، الاعتماد ، ثمّ المصادر المؤسّسة) . ومبتغانا من ذلك **امتناع القارئ** بلباب هذه الوثيقة البكر في معانيها والثرة في مراجع أنجازها . فإنّ نقنع بأننا اعتصرناها بقدر ما لان عودها ، فلأنّ ما جنيناها منها معزولة عما تلاها وعما سبقها يبقى مجرد قبس يحتاج بطبعه إلى التناول في إطار مدوّنة كبرى . وما هو إلا غصن منها وما الغصن إلا فرع شجرة تحتاج باستمرار إلى لعناية حتى تحافظ على نضارتها وخصوبتها .

* الإحالات :

- 1 - الفريجة : قريحة الإنسان طبيعته التي جُبِل عليها وهي أوّل خلقته ومنه قولهم : « لفلان قريحة جيّدة يراد استنباط العلم بجودة الطبع . ابن منظور - لسان العرب ج ١ . دار لسان العرب - بيروت المجلد الثالث ص 48 .
- 2 - الرسالة العذراء - ص 22 .
- 3 - الطواويس نسبة إلى طواويس وهي اسم ناحية من أعمال بخارى بينها وبين سمرقند ، ولزبد الإطلاع على كيفية إعداد لوازم الكتابة يمكن مراجعة : أبو حيّان التوحّيدي : رسالة في علم الكتابة - ط . المكتبة الكاثوليكية - دمشق 1951 ضمن مجموعة رسائل - تحقيق إبراهيم الكيلاني
- 4 - الرسالة - ص 41 . ويرى الدكتور زكي مبارك أنّ هذه العبارة مزيدة ومستندة في ذلك عدم وجودها في العقد الفريد .

- 5 - الرسالة - ص 26 .
- 6 - الختم والطبع في اللغة واحد ، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من انفلاجه . والخاتم هو ما يوضع على الطينة . والختام هو الطين الذي يختم به على الكتاب . وخاتم الكتاب يمنع الناظرين عما يتضمنه . (لسان العرب - مادة [ختم] - النسخة المذكورة سابقا - ص 790 - 791)
- 7 - الرسالة - ص 28
- 8 - هو أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني لغوي عربي من أهل البصرة درس على الأصمعي وأبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة معمر بن المثنى ... (انظر ترجمته بدائرة المعارف الإسلامية - النسخة العربية - ط 1933 - ص 323) وقد يكون أدرج تقنيات التعمية المذكورة في كتابه المسمى « كتاب الوصايا » .
- 9 - الرسالة - ص 29 .
- 10 - الرسالة - ص 14
- 11 - الرسالة - ص 19
- 12 - الرسالة - ص 21
- 13 - الرسالة - ص 20
- 15 - لتوضيح هذا الجدل يمكن تلمس بعض وجوه في المقدمة الدقيقة التي وضعها الدكتور طه حسين لكتاب نقد النثر المنسوب إلى قدامة بن جعفر (من ص 1 إلى 32 - ط 1 القاهرة بولاق 1947) . وقد بلغ هذا الجدل أوجه في القرن الرابع الهجري . وادق وثيقة تكشف ذلك : المناظرة الشهيرة بين أبي سعيد السيرافي وأبي بشر متى بن يونس المثبتة في كتاب أبي حيان التوحيدي - الامتاع والمؤانسة (ط 2 دار بوسلامة للنشر - تونس 1986 - ص 84)
- 16 - 17 - 18 - 19 الرسالة - ص 30 - 34 - 35 - 18
- 20 - 21 - 22 - 23 - 24 الرسالة - ص 35 - 36 - 30 - 31 .
- 25 - د . زكي مبارك - فهرس الاعلام (ملحق الرسالة) ص 51
- 26 - أورد هذا القول د . زكي مبارك في سياق حديثه عن رسائل الجاحظ إلى ابن المدبر انظر : النثر الفني في القرن الرابع ج 1 - ط 1 - دار الكتب المصرية - 1934 - ص 155
- 27 - الرسالة - ص 18
- 28 - Encyclopedie de L'Islam (n,éd) vol 3 pag904
- 29 - أثبتنا الفارق اعتمادا على المصطلحين الفرنسيين لأن مصطلح (secretariat) ينتمي إلى القاموس الإداري وله صلة بدلالة السر في الكلمة (secret) والكاتب هو المستامن على أسرار مستكته . أمّا مصطلح (L'écriture) فهو مصطلح فني محض .

زهرة الصبار أو المراوحة بين القهر والحرية

رواية علياء التابعي

بقلم : جلّول عزّونة

نصّ المداخلة التي قدّمت في منتدى القصاصين باتحاد الكتّاب التونسيين يوم 28 نوفمبر 1991 السادسة مساء

وقد ساهم في النقاش كلّ من : علياء التابعي ، عروسية النالوتي ، الهاشمي بلوزة ، حمة الهمامي ، مصطفى الشريف ، حسن بن عثمان ، رضا القرقي ، حياة الرايس ... إلخ

1. هل نحن إزاء رواية ؟

نعم ، بالمفهوم الواسع للكلمة ، خصوصا بعد ما أدخله جماعة « الرواية الجديدة » Le nouveau Roman ومن قبلهم السرياليون من معطيات على مفهوم الرواية من حيث قلة الانضباط لمقاييس محدّدة ، مقيدة ولادب بصفة أعم .

ولكننا نتساءل : هل نحن إزاء رواية ؟ إذا ما دققنا النظر في بناء النصّ ككلّ ، في الشخصيات والأحداث وعلاقة ذلك بالمكان والزمان ويتكوّن الإرادات المتصارعة المتصادمة مدى ثرائها واستقلاليّتها وانسياقها داخل منظومة لها منطقها الخاص !

إذ يبدو لنا - في أغلب الأحيان ، أننا إزاء " رواية " تصفية حسابات " ينطلق فيها القلم في تداعيات أفكار بلا حدود ، نوع من الهذيان والصراخ ، وتلاعب باللفظ كأنّ الكاتبة تجد لذة في ذلك ومتمتع فتنسى القارئ والنوق والفنّ ، وكأنّها تريد فقط التنفيس عن البطلة (وهذا من الضروريات الفنية التي يفرضها فنّ القصّ) ولكن أن يصير ذلك شبه قاعدة أساسية في الرواية ، فلا . لأنّ هذا المنحى الذي يريد أن يصدم و " يريك " (هشام الريفي في تقديمه للرواية - ص 27) لا يبلغ مقصده إذ أنّ القارئ يصاب في أحيان كثيرة ، بنوع من الملل للتكرار المبالغ فيه لانتهيار البطلة ، هذا المعنى الذي يتجدّد في كلّ صفحة تقريبا ...

انظر مثلا ص 152 : " جاء زمن البحث عن الزمن المهدر ... جاءت الفاتورات .

ص 171 " حسابك مع نفسك وليس معي " ورغم هذه السلبيات فنحن إزاء رواية أرادت - وأن طرقت موضوعا معروفا ، وهو الرحلة والهجرة والغربة الفعلية والروحية وإن فُقد الترحال (الرواية تفتح بالعودة لأرض الوطن) - أن تكون مناسبة لمراجعة النفس والمسلمات والثوابت . وهذا من جوهر الأدب ...

جواهر الأدب العالمي قديما وبالخصوص .
جواهر الآداب الحديثة أي البحث في المَهْمَش وفي المسكوت عنه ، وفي المقدس والمحرم وفي ارتياد تلك العوالم الممزقة المتأرجحة ، المقسمة بالحدود الجغرافية أو الاجتماعية أو النفسية أو السياسية أو الدينية أو العرقية أو الحضارية الخ ...
لذلك فإن الموضوع مهم وهو الانهيار ، بأبعاده المختلفة . فالرواية وأحداثها : استفاقة من انتحار وصف التدرج نحو التحطيم ، تحطيم مشروع حب ، تحطيم مشروع زواج نتيجة الموت وعبث الأقدار يتحطم حلم بمشروع مجتمع أكثر عدالة ، تحطيم بالخيانة والاستقالة .

فالأدب ، عندما يتحدث عن سقوط الثوابت هو في ميدانه وذلك عالمه ، وهذا ما ننتظره منه . فنحن إزاء الانهيار والعجز وهذا يتطلب - الخلاص من هذا الوضع غير المريح - المراجعة ، ذلك منطق الأشياء . فالمراجعة نتيجة حتمية لانسداد الأفق بل الأفاق ، رغم تعنت البطلنة وصبرها (5 سنوات انتظار ... أكثر من صبر سيدي علي الرياحي في أغنيته التي يقول فيها : (عطفت بعد ثلاث سنين ... تُسكن في حومتنا ... وأنا حالف ما نقولش عليها ...) ولكن يبدو أن الانهيار يكمن سببه لا في المعطيات الموضوعية الخارجية للأحداث ولميزان القوى فقط بل يسكن البطلين : أحمد ورجاء (ابني العاصمة) وطموحهما اللامحدود ، وكأنهما مأخوذان بسحر الانحدار نحو الهاوي (ص 133) .

ومن هنا كانت محاولة الانتحار (بشرب "الجافال" : المستعمل عادة من طرف الخادمت ، فنرى أن حتى طريقة الانتحار طبقية .. = ص 138 - و ص 167) وعودة أحمد رغم نجاحه هناك . وكأنهما يحملان الفشل والانهيار داخلهما - وكأنه محكوم عليهما بذلك منذ المنطلق Mosochistes أو Predestines

وهنا يأتي فيلم يوسف شاهين المشار اليه بطرف نون ذكر عنوانه (ص 138 و 139) وأظنه فيلم : العصفور وفيه تلك الصهوة المرة بعد حرب 1967 (جوان) التي لا تبقى ولا تذر ، تزعزع كل الكيانات وكامل الثقة وتصير ، حتى مقاومة الانكليز - فولكلورا (شخصية محمود المليجي) و الانهار موضوع جيد اذن ، قديم قدم الانسانية منذ ملحمة قلقامش (ولعلها أقدم نص أدبي بشري على الإطلاق) وأسطورة Icares الذي تحترق جناحاه في مغامرته التي حاول فيها الصعود لأعالي السماوات ، لعالم الالهة ، نظرا لطموحه اللامتناهي .

ولكن طريقة تداول موضوع الانهار ، كان يمكن أن تكون بشكل أصفى وأقل تشنّج وأحسن توظيف .

ولكنّي وأنا أتقدّم بهذا الحكم ، لا أظنّ الناقد مطالب بتقديم النصح للمبدع . حدّه التقييم لا غير ... فنقول اننا أمام ما يسمّى عادة ب Nouvelle أي قصّة طويلة ، هذا من ناحية الحجم والمحتوى والمنحى .

2. أيّ مضمّن ؟

هذا هو السؤال المطروح

لنقد هذا النص ؟ وأمّا هذا النص ؟ <http://Archive>

هل يكون ذلك بالنقد الاجتماعي ؟

أو بالنقد النفسي ؟

أم بالنقد الدلالي ؟

أم النقد البنوي (واللغة وبورها)

أ - فنلاحظ بادئ ذي بدء ما يتّصل

بالجملة وتركيبها :

فهي إما قصيرة . فتعقيب عليها يتبعها أو هي طويلة متداخلة .

وكانني بالجملة القصيرة هي الايقاع لموسيقى النص ثمّ يأتي بعد ذلك استعراض المعنى الموسيقي (Developpement) . واذن نحن ازاء جملة ذات زمنين اثنين ،

ذات نفس مزوج الطول .

ب - أمّا ما يخصّ اللغات واللهجات ومستوياتها وعلاقتها ببعض فنتساءل هل كل

هذا يمثل الانسجام ؟ لا ، وبما للأسف إذ نجد أنفسنا أمام مستويين اثنين كذلك :

Deux registres a part

ونلاحظ أنَّ المستويين لا يتعايشان ولا يتكاملان

Coexistent - ils ? - Non

كل ما هناك وجود هما الواحد بجانب الآخر juxtaposition واذن لم تنجح
التابعي في المرور من مدونة إلى أخرى .

فألغة الدارجة التونسية

عند علماء التابعي

هي لغة سوقية ، هابطة ، قبيحة ، مفتعلة شتان بينها وبين لغة البشير خريف
الذي وصف مثلاً منطقة المتلوي والمناجم في روايته المعروفة : الدقلة في عراجينها ،
فاللغة عند خريف لغة شعبية مناضلة ، ذات جمال وورنة وعمق .

فعند خريف انسجام بين اللغتين أو اللغة واللهجة ونجاح كما أن المسعدي
منسجم في العربية الفصحى .

في حين نرى عند التابعي فرقاً شاسعاً بين المستويين وبين المدونتين ، هناك
غياب الانسجام وعرج ومفاجأة : (مستوى هابط وآخر متعالي)

أما اللغة العربية عند التابعي حتى لا تبقى اللغة سجنًا جميلًا
وزنقة لا تنفذ ولا أفاق لها

فهي لغة نخبة - لغة فيها جمال وإتقان (مثل الموسيقى المتقنة) ، أي
الكلاسيكية التي فيها نوع ما من الأخذ من الماضي المندثر الميت وفيها صنعة بل

تصنع أي اصطناع . Un peu de preciosite

في حين تكون الفصحى عند المسعدي هي حين يتحدث أو يكتب فالصدي
متقارب في الإيقاع وفي انتقاء اللفظة وإيست اللغة المستعصية ولكنها عصية .
ويجب البحث عنها لمن ليس له باع المسعدي .

لذلك نرى أنه يجب أن لا تبقى اللغة سجنًا جميلًا وزنقة لا تنفذ ولا أفاق لها .

3. عنوان الرواية

ونقف الآن قليلا عند العنوان .

فنرى أنه وقع التلميح إليه مرة واحدة (ص 148) :

« قبل أن يزهر الصبار »

ونحن نعلم أن زهرة الصبار جميلة ، فيها حلاوة وسكّر (صفراء وأحيانا حمراء نوعا ما) ولكن شوك الهندي ، شوكه الكبير وبالخصوص الصغير الذي لا يكاد يرى ، المتربص دائما بالأيدي الناعمة ، هو المشكل ... وهو مثل شوك الورد . ولكن شوك الصبار أنفذ وأوجع ومن هنا الكلام اللاذع المشقّت عبر صفحات هذه الرواية ...

4 - الشخصيات وتركيباتها : (والتطور والتشكّل والتغيير)

نعتقد أنّ الشخصيات لم تتطور حقيقة - بل هي أعطيت لنا دفعة واحدة بأبعاد مسطّحة كثيرا Des personnages non etoffes

وإذا بنا أمام نماذج وأنماط أكثر منها شخصيات بلحمها ودمها وتناقضاتها وتعتدّ تصوّرها الفنّي وتشابك طبيعتها .

لذلك لا نبتعد كثيرا عن الواقع إذا أكّدنا أنّنا ازاء « رواية ذهنية » أكثر منها رواية واقعية أو سرّالية إذا ما اقتصرنا على تركيبة الشخصيات لا غير ..

ولقائل أن يقول : وتطوّر الشخصيات ومراجعاتها وتغيّرها مع الزمن ومع قساوة الأحداث ؟؟

هذا أحمد يعود .

وهذا عادل ينسلخ من التنظيم بعد السجن ؟

وهذه رجاء تتزوّج لا عن حب ... وهي التي عاشت لجسدها ولحبّها ؟

نعم ...

ولكن التغيير هنا معلن من طرف القاصّة وكأنّه حلّ سحريّ بإرادتها ... أو لنقل تعلنه مرآة إعلانا ، في هذيان رجاء أو خلاله وكأنّه هنا ليبرر أشياء فلا نعيش هذا التحوّل وهذا التغيّر بالتدرّج ومن خلال معاشتنا للشخصيات وهي تعاني الأزمات وتمرّب بها .

الشخصيات وتركيباتها :

وإذا بالتغيير ليس نتيجة حتمية لتطور ما في الواقع وفي الأحداث ولكنه يلقي على رؤوسنا والقاء من خلال خطاب رجاء ، فنشعر أنه تطور تفرضه إرادة الروائية لا التطور الداخلي الذي يفرض نفسه على الجميع وإذا به ليس تحولاً بل مسخاً أو مسوخاً (Metamorphose presque magique) أي لا بإرادة الأسطورة ولكن بإرادة القاصّة. (Les personnages sont donnés en bloc)



ARCHIVE

http://Archivum.org

وأحداث تونس 1978 : الاضراب العام وأحداث 26 جانفي . 1981 : فشل التجربة الديمقراطية التعددية الأولى ، ولكن هذه المحطات " الكرونولوجية " يجب أن لا تنسينا عنصراً آخر أهم بكثير وهو زمن السرد . وهو الزمن الحقيقي الذي توقفت فيه عقارب الساعة ويوم ليلة واحدة (إحدى ليالي ألف ليلة) أو أقل ، منذ الفصل الأول إلى الفصل التاسع (ص 171) (لا السابغ كما طبع وتوهم ذلك هشام الريني بدون تمنع) نحن إزاء لحظات بوح وعودة للماضي وتساؤلات وطلب إيضاحات وتصفية حسابات لا تتم ، وكأننا في الحقيقة لا نحضر خصاماً وحديثاً كثيراً ، ولكن للشخصيتين : رجاء وأحمد نوع من " المونولوج " لكل منهما لا ينتهي . وقلماً يلتقيان . وعند الالتقاء ، في الفصل القصير الأخير ، تنتهي الرواية ظاهرياً بافتراق البطلين ، ولكن الخاتمة تبقى مفتوحة فمن يدري ؟

وهنا نسجل نجاح علياء التابعي ، التي أظهرت بالمحسوس أن زمن السرد ومعطياته الفنية فقط هي المتحكم في القصة (مثل Ulysse لجويس = هناك يوم وليلة وهنا ملحمة في نصف ليلة) والزمان اذن مغلق أو شبه مغلق وهو على كل حال دائري (cyclique) فعودة أحمد بعد موت عادل تفتح الرواية وتُغلق آخر صفحاتها

والسرد هو عبارة عن استعراض للماضي وكأننا إزاء إحدى تقنيات السينما . العودة للخلف أو للماضي (فلاش باك) = وإذا بالحكاية : فيلم يمر أمامنا انطلاقاً من حدث حاضر يتسبب في إطلاق كايح الذكريات ، انظر مثلاً ص 133 : السرد ليس كرونولوجياً ، والفلاش باك عديد استعماله ، وليس له نظام ظاهر وكأن توارد الخواطر فقط هو المتحكم فيه . وهذه التقنية صارت معروفة ، ومستعملة بكثرة منذ أكثر من نصف قرن ... ولكن المميز هنا هو طريقة التقطيع ، وكأننا إزاء سيناريو فيلم أعد ولكن الظروف جعلت صاحبه تحوِّله إلى « رواية »

6. المكان

في البدء هي :
تونس : العاصمة أساساً وباب الخضراء والمدينة « العربي » بالذات هي أهم إطار للأحداث .
انظر (ص 147) الاصل والحنين والهوية (عودة لتونس : أحمد - عودة للذات والتراث)

ولكن كذلك : السجن - والمظاهرات - والموت (النفيضة وبوفيشة)
ثم مكثر : محطة مهمة في إيقاف الانهيار لرجاء ووعي بالبعد العميق للوطن

(التصادم مع الاجنبي الذي أنكر وجود فلسطين)
ووقفصة : بالنسبة لعادل في
أما باريس : فهي التي لا حمد ، والعالم المنشود للنجاح وهي موطن الحلم لرجاء رغم عدم تركها لتونس كذلك هناك Jura Le (فرنسا)

أما لندن : فهي محطة الامل ، مرحلة المراجعة للثوابت وحتى مرحلة « البركة »

وذلك تطبيقاً لنصيحة من الطبيب المعجب برجاء : سمير ، وهي مثل محطة اليهودي - التي كتبت عنها الصحافة الشرقية كثيراً في لوم للنوري بوزيد في شريطه الأول : ريح السد ..

فهل لا بدّ من الرحلة والتصادم مع الغرب لنرتدّ لانفسنا ؟

7. صور جميلة مستحدثة

الأدب لغة

وصور جميلة

وعلياء التابعي تنجح في هذا ولا شك وتقدم لنا صوراً مستحدثة ، فيها خيال وبراعة وبلاغة ، فتخلق فينا بهجة ومتعة .

وهذا النجاح الذي يسجل لها نجده في مواقع كثيرة . ولعلّ هذا الجانب من أهمّ مميّزات هذه الرواية وصاحبته . (انظر مثلاً ص 164 و 148 « ثمار الهزّات المرّة » ص 132 - 133)

8. الرومنطيقية وعودة الأغراض

كما يمكن أن نلاحظ انطلاقاً من الصور ، اتجاهها لدى الكاتبة قد ينبئ بنوع من عودة الرومنطيقية ، ولكن الكاتبة كثيراً ما تلجج جماعها وتوقف ذلك الانزلاق لديها ، لتتحكّم في صورها وفي الأغراض التي تطرقها .

9. اليسار والموقف من السلطة

عادة ، لا يمكن لنا أن نناقش في الرواية ، أي رواية ، وهي قبل كلّ شيء أثر فني أدبي ، توجّه الأبطال وأفكارهم ومواقف الشخصيات الروائية وكذلك لا يجب الخلط بين البطلة رجاء وعلياء التابعي الكاتبة وإن كان عندنا ميل لذلك رغم ما جاني في تقديم الرواية (ص 29) بضرورة عدم البحث عن الأشخاص الحقيقيين وراء شخصيات الرواية ، فنحن لسنا أمام رواية = سيرة ذاتية ، والتنبيه المذكور مهمّ إذن حتى لا يقع الخلط - وهذا شيء معروف - وحتى أن ملنا إلى الاعتقاد بأنّ في البطلة جزء من المؤلفة ، فتبقى رجاء شخصية روائية مركّبة - لا شك في ذلك - يمكن أن يكون من علياء التابعي فيها أشياء - ولم لا - ولكنها تبقى مستوحاة من الواقع

الثري ويجب اذن النظر اليها هكذا لا غير ...

ومن هذا المنطلق ، أي من كون الرواية تشتمل على شخصيات لها أفكار ومواقف ، يمكننا مناقشة ذلك وبالاخصصوص مسألة الموقف من اليسار ومحاكمته من طرف رجاء ، والأهم ما جاء من تبرير لمواقف السلطة (لا في معناها العام كما كرّر ذلك هشام الريفي في تقديمه) بل السلطة في تونس زمن أحداث الرواية أي حكم بورقبيبة وما قد يفهم - وهذا له ما يبرره - من تبرير السلطة الآن في بلادنا بصفتها تواصل لسلطة بورقبيبة - وذلك في عديد الصفحات والمواقف (انظر مثلا صفحات 113 - 118 - 119 - 147 - 154 - 156 - 163 - 164 - و 171 الخ ...)

ولا أريد أن أطيل في هذا الباب فمن الحضور من هو مؤهل للخوض في هذا أحسن مني ، ولعلّه يتدخل في هذا الاتجاه ، ولكن أريد فقط التساؤل : هل ليس في ذلك ارضاء للرقابة الحالية على الإبداع ؟ ويحثا عن وصل للسماح بالصدور ؟ وبالتالي تحالفا موضوعياً - على أقل تقدير - مع السلطة ؟

10 - موقع الأدب التونسي والحكم عليه
في طيات الرواية ، هناك إشارات لبعض المؤلفين التونسيين
فمثلا في ص 81 : ذكر البشير خريف والشابي

و ص 165 : القرمادي (صالح)

ونحن نرى أن الحكم قاسي جداً ، وهناك نصوص جيدة « يا رجاء » ، نصوص أخرى في أدبنا التونسي ، حاضره وماضيه القريب تشرف هذه التربة والادب بصفة عامة .

11 . المراجع Les references

وأقصد مراجع الكاتبة وهي كثيرة وفي آداب مختلفة وفنون عدة : (سينما - موسيقى ... الخ)

وهذه الاحالات تتم عن ثقافة واسعة ومتينة وتفتح مجالات أمام الابداع - وهذا لعمري شرط من شروط الابداع الحقيقي في عصرنا الحالي .

ولكننا مع هذا ، نبقي نحمل انطبعا عاما وهو أن الكاتبة أرادت أن تقول كل شيء في هذا العمل الابداعي .

وهذا التكتيف طبيعي في أول عمل ابداعي ، يريد فيه صاحبه عادة أن يقول كل شيء ، مرة واحدة ودفعة واحدة ... وعسى أن تتجاوز الكاتبة ذلك في أثر لاحق فتركز وتتعمق في طرح مشكل مركزي واحد .

12 . التآثر والتجاوز

إن كتابة التابعي عليها بصمات (وكأنتها صدق لمطالعات ودراسة وتأثر بذلك) ونرى بصمات المسعدي ، ولا شك .

وكذلك نعيمة أحيانا ، ولكن حكمة نعيمة العميقة ، ويعدده عن الاحداث ونظيرته المجردة تنقص قصاصتنا ، التي تجعل من أبطالها وبطلتها وشخصيات الرواية « يرون الفعل » أغلب الاحيان ، مما يفقد الاحداث ثقلها ومنطقها الداخلي الذي يتجاوز إرادة الكاتبة وميولاتها .
كذلك نحس بحضور :

انظر ص 172 - 171 آخر الرواية Camus Le mythe de Sisyphé

« هيا تعاود الطرح » -

ولكن مفهوم العبثية عنده وعند الجوديين والتي تقضي في جوهرها إلى مسؤولية الانسان المطلقة ، لانكاد نجد منها إلا أصداء باهتة في زهرة الصبار : لا تستجدي الفهم من أحد ، لأن لا أحد يفهم « L absurde »
- وكذلك وبالصّوص .

نجد في الرواية صدق لكتابنا بالمشرق العربي : انوار الخراط وغادة السمّان !!
والتأثر ، في الابداع الأول طبيعي ومقبول ، ولكن بشرط أن يكون ذلك فيه تجاوز وأقلّمه مع عالم المبدع وخصوصياته ...

13 . الخاتمة

إن زهرة الصبار

رواية لا تبقى إزاعا حياديين ولا غير مباليين ...
هي رواية تبشر بالكثير -

ولنها تبقى رواية فيها كل نقائص الاعمال الاولى .
ولا ترقى لعديد رواياتنا من أمثال :

1 - الرحيل إلى الزمن الدامي

2- الحركة وانتكاس الشمس

3- حدث أبو هريرة قال ..

4- حركات

5- الدقة في عراجينها

6- الانسان الصفر وغيرها

إضافات مرجعية :

انظر : 1 - مقال علياء التابعي : قبضة من الصدق

ويد تصافح بلا رية - حقائق عدد 326

(ص 22) 6 - 12 - 1991

2 - لقاء مع علياء التابعي ، حوار زهرة الجلاصي - حقائق

(ص 25) 24 - 5 - 1991

3 - آمال مختار : زهرة الصبار سؤال برزني في الوجود . الصباح 1991

4 - FLEUR De Cactus . Parole De Femme Par Anouar Attia

La Presse 13 - 11 - 91 p 90

5 - دراسة عن الرواية بمجلة <http://ArchivesIbla>



المعلم القدوة

بقلم الأستاذ: عبد المجيد بن عمر

كف للمعلم ووفه التبجيلا * كاد المعلم أن يكون ر

هزني الحنين يوما إلى مراتع الصبا وتشوقت إلى القيام بجولة في مغاني مدينة
مكثرتي قضيت فيها طفولتي وشبابي وأول زيارة لي كانت إلى المدرسة العتيقة
الكائنة حنودار المعتمدية وكانت تسمى المدرسة الفرنسية العربية الابتدائية
Ecole Franco Arabe Primaire ووقفت أمامها وقفة اعتبار وإكبار رافعا يدي
بالتحية ومردد لولحدي هذه الكلمات .

يا معهدا علمني * وباللهدي جملني

حليتني من صفري * بكل خلق حسن

وأول من تذكرته وقد سرح بي الخيال إلى الماضي البعيد الممتد إلى خمسة
عقود هو مدير المدرسة السيد جورج فريطا George Fretas الرجل الفاضل
الذي ترك أثرا طيبا في نفس كل من تتلمذ عليه .

إنه من أعظم المربين وأجلهم ، وقد ترك بصماته واضحة في تاريخ مكثرتي وذلك
يظهر في ما قدمه من أجل الخدمات في ميدانه التربوي للمدينة إذ تخرج على يديه
شباب غرس فيهم حب العلم وخلق فيهم الطموح إلى ما هو أحسن . فأصبحوا
عناصر مفيدة في المجتمع ومنهم الأطباء والقضاة والمحامون والأساتذة والمعلمون
والإداريون المحنكون . وقد اقتديت به عندما باشرت التدريس وكنت كلما حققت
خطوة في الميدان التربوي انتعشت نفسي وانشرح صدري وقلت إن هذا النجاح
من ذاك المعين الدافق الذي ارتويت منه وتشبعت بمبادئه .

هو المربي الممتاز سيدي فريطا الذي يختلف عن بقية المتشبعين بالروح
الاستعمارية الحقودة ، ومما يمتاز به عنهم اعتزازه برسالته التربوية التي يحرص
كل الحرص على صيانتها من شوائب العنصرية وأدران الحقد والكرهية للعرب

والبرهان على ذلك الإخلاص والنزاهة والعدل والمساواة في معاملته لكل تلامذته من عرب وفرنسيين ، بوسلوكة الحميد هذا أعطى لتلامذته المثل الأعلى في سمو الأخلاق والرفع عن الصغائر فكان بحق القدوة الحسنة والجدير بالإحترام .

قد يكون يدخن السجائر ، ولكننا لم نشاهده يوما يدخنها أمامنا ، وقد يكون يشرب الخمر مر ولكننا لم نشاهده يشربها ولم نره يوما يدخل إلى حانة من حانات المدينة . ومن أحسن ما يتّصف به التّواضع ونلاحظ ذلك في حسن استقباله لأباء التّلاميذ والحوار معهم في شأن مجرى حياة أبنائهم ، ولا يميّز بين الفقير والغني . أمّا علاقته مع معلّم العربية فهي طيّبة للغاية ، فكان يتحدّث معه في ساحة المدرسة ، عندما يخرج التّلاميذ للرّاحة واللّعب لعشر دقائق ، فيلاحظ عنهما التّلاميذ إنهما يتبادلان الاحترام .

لقد كان شديدا إذا أدّب أحدنا وأداته التأديبية هي العصا . ولكنه مع ذلك يرقّ قلبه على الضّعيف منّا ويحنو علينا حتّى الأب على أبنائه .

أمّا أساليب تدريسه : فهي صحيحة وتستمدّ أصولها من صميم البيداغوجيا ، والدّليل على ذلك أنّ دروسه التي يقدّمها لنا في كلّ المواد تبقى راسخة في أذهاننا لأنّنا فهمناها فهما جيّدا . ومن أساليبه التّطبيقية إقحامنا في المحيط الاجتماعي فكان يكفّ كلّ مرّة تلميذا بشراء بعض المواد الغذائية ويوصيه بإحضار فاتورة الحساب ، وكان يدريّنا على العمليّات البريدية فيأمرنا باقتناء المطبوعات الخاصّة بالبرقيات والحوالات والرّسائل المضمونة الوصول ويعلمنا كيف نعرّضها .

وفي درس التّاريخ يخرجنا من القسم ويصحبنا إلى المنطقة الأثرية وهناك يلقي علينا درس التّاريخ مستعينا بما هو موجود كوسيلة إيضاح من بناء ونقوش وأواني ونقود ، مثلا لما حدّثنا عن سجن لاباستي بباريس في عهد لويس السّادس عشر وصف لنا شكل بنائه وشبّهه في ضخامة حجارتها بما نراه من حجارات الآثار الرومانية ، وقربّ إلى أذهاننا أنواع اللّباس في ذلك العهد بما نراه من صور منقوشة على الحجارة لرجال ونساء الرّومان قبل ميلاد المسيح .

وكان يخصّص لنا ساعات في مساء كلّ يوم سبّبت يعلمنا خلالها الحركات الرّياضية وينوّع فيها فيتدرّج بنا من القفز المستطيل على الرّمْل إلى القفز العالي

على الجبل إلى تسلق الجبل الموثوق بغصن مرتفع من أغصان شجرة ، وينظم لنا حصّة إضافية في العود وتتبارى فيها فيسعى كلّ واحد أن يكون الأوّل في السبق وفي البستنة Jardinage كان في عشية كلّ يوم جمعة يقسمنا إلى فرق وعلى رأس كلّ فرقة رئيسها ، وتتولّى كلّ فرقة خدمة جزء من أرض حديقة المدرسة فنحفرها ونزرعها ونتعهد نباتها بالسقي والتّنقية من الحشائش الطّفيلية وما تنتجه من خضر نزوّد به مطعم المدرسة الذي يطعم فيه المدير التّلامذة الفقراء ، ولا يترك هذه العملية تمرّ من غير أن يقول لنا أنّ ما نفعله يعلمنا فنّ البستنة حتّى إذا كبرنا واندمجنا في المجتمع نكون عارفين بقواعد الزّراعة وخدمة الأرض ، ويشعرنا أنّ ما نقوم به فيه معنى التّعاون إذ أنّ إنتاجنا نقدّمه مجاناً إلى مطعم المدرسة ليأكله فقائنا التّلامذة الفقراء .

ويعلمنا الفنون الأخرى : كالموسيقى ومن بيننا من صار يحسن العزف على العود والعزف على الكمنجة والتّقر على الدّريكة ، والنّفع في النّاي وكان يستعين بزميله معلّم العربية الذي له دراية بالموسيقى العربية فيخصّص له ساعة في كلّ أسبوع يعلمنا فيها الأناشيد على أنغام أوتار العود التي يجيد الإيقاع عليها .
وعن فنّ التصوير باليد : كان يخصّص لنا حصّة لتصوير الأشياء مع تلوينها بأقلام الزّيئة والحصّة الثانية يعلمنا كيف نصوّر بريشة قلم الحبر وبالحبر فقط ومن يقدّم صورة يرضى عنها يعطيه جائزة تتمثّل في كرّاس وقلم رصاص وقرص شكلاطة .

وحدث مرّة أنّي وفقت في تصوير سنبله قمح بريشة قلم الحبر فأعجب بها المدير وأسند لي عشرة على عشرة وقدم لي جائزة فحسدني التّلامذة الفرنسيون وأدعوا أنّهم صوّروا السنبله أحسن منّي ، فابتسم لهم وأنكر عليهم حجب الحقيقة واستنقاص عملي الذي من واجبه التّثويه به ونعتهم بما تتّصف به النّساء وهي الغيرة فقال لهم *c'est la jalousie qui vous fait parler* .

وعن الديمقراطيّة والتّجرّد من العنصريّة : فقد قدّم لنا أمثلة على ذلك خلال درسي الجغرافية والأخلاق . ففي الجغرافيا قدّم لنا درساً عن جغرافية فرنسا بعد أن علّق الخريطة على السبورة ليطبّق عليها الدّرس وليعرّفنا بالحدود ومواقع أكبر

المذن ، وكتب في ركن من السَّبُورة بالطباشير Geographie de laFrance وكتب :
مساحة فرنسا 551.500 كلم2 وقال إنها تفوق مساحة تونس أربع مرآت ، وكان
يجلس في المقعد الكائن أمامي تلميذ فرنسي إسمه François ponslé ابن
جندرمي ، إلتفت إليّ وقال لي : « أريت إنّ بلادي فرنسا أكبر من بلادك تونس ،
فلذت بالصمت وقلبي يتميِّز غيضا . وبالف في الإفتخار عندما قال المعلم إن عدد
سكّان فرنسا يبلغ 52 مليوناً وعاصمتها باريس ومضى يعدّد ما تنتجها أرضها من
حبوب وغلّال ومعادن وأسهب القول عن مصانعها التي تتوّعت مصنوعاتِها .

وفي الأسبوع الموالي قدّم لنا درس جغرافية القطر الجزائري وأعلمنا إنّ موقعها
يأخذ حيّزاً كبيراً في شمال القارّة الإفريقية بخلاف فرنسا فهي في القارّة الأروبيّة :
وأشار إلى الخريطة بالمسطرة ثمّ قال إنّ مساحة الجزائر تفوق مساحة فرنسا أربع
مرآت فهي تمشح 2.176.000 كلم2 وأكبر من مساحة تونس بـ 14 مرّة ،
وأراضيها خصبة تنتج الحبوب والغلّال والغاز والنفط والمعادن الأخرى فلم أتحم
في مشاعري ولم أتردّد في وخز التلميذ الفرنسي (فرنسوى بونصلي) وقلت له
أريت أنّ الجزائر أكبر من فرنسا أربع مرآت ؟ فالتفت إليّ حانقاً وقال لي ليست
بلادك <http://Archivebeta.Sa> Ce n'est pas ton pays بلادك

وتوقف المدير عن مواصلة الدرس وسأل في أيّ شيء تتحاوران ؟ وسكت أنا خوفاً
من العقاب فالحّ المدير على أن نصارحه فرويت له ما حدث بيننا ، فأيدّ قول فرنسوى
وقال لي (هو على حقّ فالجزائر غير تونس والجزائريون فرنسيون مسلمون وأرضهم
جزء من فرنسا) La Igerie Francaise Musulmane فأجبت معترضاً على ذلك)
لا سيدي الجزائر بلاد عربيّة وسكّانها عرب مسلمون كالتونسيين فهم يصلّون
ويؤمّنون بالله ويصومون ويحجّون إلى مكّة ، وسيأتي اليوم الذي نتحد فيه ونصير
أمة واحدة ، فأطال النّظر إليّ وخلت أنّه سيقرّر طردي من المدرسة ، ولكنّه لم يفعل
وردد قولاي نعم يا بنيّ سيأتي يوم تحرّر فيه الشّعوب وسألني من حدّثك بهذا
فأحببت إنّ والدي يقرأ الجرائد وكتب التاريخ ويفسّر لي ما يقرأ فقال بصوت غير
منخفض سمعه كلّ تلميذ نعم الرّجل والدك ، بلّغ له تقديرّي واحترامي .

في دروس الأخلاق Etude du moral

علّمنا مبادئ الأخلاق وواجب المحافظة عليها والتحلي بالصراحة والصدق وأداء الأمانة لأهلها والوفاء بالعهد ، وقدّم لنا مرّة درساً عن مضار الخمر فالتقى علينا أسئلة أجبتنا عنها حسبما نعرفه . فسأل من منكم رأى رجلاً في حالة سكر ؟ فرفع كلّ التلاميذ أصابعهم . فقال إذن جميعكم تعرفون السكران وهو من أفرط في شرب الخمر ...

ويستطيع كلّ واحد منكم أن يصف شارب الخمر والمبالغ في شربه فما هو أهمّ شيءٍ فقدّه ؟ فأجبنا إنّهُ يفقد عقله واستمع إلى مقالة كلّ واحد فكان الإجماع على استنكار شربه واتفقنا على أنّ من فقد عقله لا يعرف ماذا يفعل فقد يعتدي على الناس وقد يتعرّى من ثيابه فتتكشف عورته أمام العموم وهو لا يستحي ممّا فعله . وسألنا هل يوجد من بينكم من يحفظ القرآن الكريم فيقرأ علي الآيات التي تحرّم شرب الخمر ؟ ولما لم يتلقّ الإجابة قال لنا في الدرس الآتي للأخلاق هاتون لي بالآية التي تحرّم شرب الخمر : وفي الموعد الذي حدّدناه لنا قرأنا عليه قول الله تعالى : >> يا أيّها الذين آمنوا إنيّم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون >> وترجمنا له الآية حسب المقدرة وطبق ما فسّره لنا أبائنا فتقبل ذلك بكلّ ارتياح : وقال مادام دينكم الإسلامي يحرم شرب الخمر فلا تشربوه فهو يضرّ بصحتكم ومن مخلفاته حدوث أمراض في القلب والكبد والإصابة بمرض السرطان .

سؤال عن الديسقاطية :

قدّم لنا معلّماً درساً عن قيام الثورة الفرنسية في القرن 18 م في عهد لويس السادس عشر Louis فقال إنّ هذا الملك الظالم يقطع أراضي فرنسا إلى الكونتات يتصرّفون فيها تصرّف المالك في ملكه أي في الأرض ومن عليها من العباد وما يعيش فوقها من حيوانا وما تخرجه من غلال وثمار ، وكان المجلس الوطني >> البرلمان الفرنسي >> توجد فيه أغلبية وطنية تسعى لتحرير وطنها وتحطيم سجن لباستي La Bastille الذي زجّ فيه الملك آلاف المساجين السياسيين واجتمع النواب يوماً بقاعة الجلسات وتجاوزوا في شأن أوضاع البلاد إلّا أنّ الملك قرّر طردهم ويعدّ من ينفذ قراره ويحجّر عليهم عقد الاجتماعات إلّا بإذنه فرفض أغلب النواب

الخروج ووقف النائب ميرابو Mirabeau وقال لمبعوث الملك « قل لسيدك نحن هنا بإرادة الشعب ولا نخرج إلا بقوة الحراب » ، وموقف كهذا يعرّض صاحبه للإعدام أو للسّجن المؤبد في سجن لا باستي ، ولازالت عندي تلك الفقرة التي كتبها لنا معلّمنا السيد فريطا على السبّورة ونقلناها في صفحة من كرّاس التاريخ وهي تحكي تلك الحادثة وتاريخ انعقاد المجلس الوطني الفرنسي : Le 23 juin 1789 Louis 16 rassembla tous les deutes pour leur interdire de discuter en commun puis il leur ordonna de sepaier

Le tiers - état refusa de sortir : à l'envoyé du roi

Mirabeau déclara allez dire à votre maitre que nous somme ici par la volonté du peuple et que nous n'en sortiont que la forve des baionnettes

وأعاد المدير قراءة هذا النصّ بلهجة حماسية أثّرت علينا وخلقت في نفوسنا الإكبار لهذا النائب الشجاع وعند رجوعي إلى المنزل قرأت على أبي ما كتبت وقلت له إنّ المدير طلب منّا أن نقدّم له في الدّرس المقبل حادثة شبيهة بهذا وقعت في تاريخ الأمة العربية المسلمة ، فقال لي أبي إنّّه توجد عدّة أمثلة ولكنني أختار لك هذه الحادثة التّالية : « وقف الخليفة سيّدنا عمر بن الخطاب في اجتماع عقده بالنّاس وخاطبهم قائلاً من رأى منكم في أعوجاجا فليقاومه » فقال أحد الحاضرين واللّه يا خليفة رسول الله لو رأينا فيك أعوجاجا لقاومناك بحدّ السيف » فلم يغضب سيّدنا عمر ولم يعاقب مخاطبه ، وفي درس التاريخ الموالي طلب منّا المعلّم أن ندلي له بما أحضرناه وقرأ كلّ واحد ما أمكن له اختياره ، فلم يعجب إلّا بما اخترته أنا وطلب منّي أن أعيد قراءته فتحمّس كثيرا وقال أنا قرأت عن عمر بن الخطاب وعرفت أنّه اشتهر بالعدل ومن أقواله في الحرية « متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا ؟ » .

بسمقر اطيبة وشجاعة :

في شهر ديسمبر 1936 قدم إلى مدينة مكّثر المجاهد الأكبر الحبيب بورقيبة واجتمع بالدستوريين في فندق عتيق على ملك المواطن الصّادق الحلواني وكان الاجتماع غير مرخص فيه من قبل السلط الاستعمارية فحضره الدستوريون فقط ولم يقع التصدي له لأنّه صادف في نفس اليوم قدوم المقيم العام « إرمان قيون »

الذي قام بجولة في أنحاء البلاد للتهنئة وقد أطلق سراح جميع المساجين الدستوريين ليبرهن على حسن النية وقد اجتمع قبل ذلك بالزعيمين محمود المطري والحبيب بورقيبة .

وأعد المراقب المدني استقبالا حاراً للمقيم العام شارك فيه مشائخ التراب وعاملي أولاد عيكر وأولاد عون والخلفوات بالروحوية وسليانة والرّبع ومكثّر والأعيان واستقدم الفرسان على خيولهم ليحفوا بركب المقيم العام وأحضر فرق الطبالة والزكّارة .

أما تلامذة المدرسة العربية الفرنسية فقد جمعنا المدير ونظمنا في صفوف في ساحة المدرسة وخطبنا قائلاً إنكم ستشاركون في استقبال المقيم العام ، وأعلمكم أنّه يوجد في مدينتكم اليوم شخصية أخرى تونسية هو الزعيم الحبيب بورقيبة يقولون عنه أنّه يدعو إلى إثارة الشغب . وأنا لا أصدق ذلك فإسألوا أبائكم عنه فسوف يعرفونكم به ، وبلغت لأبي مقالة المدير فأكبره وقال : نعم ما يرييكم عليه يرييكم عليه هذا المدير إنه يتحلّى بخصال عالية ويقدّس الحرية وأعاد علي ما خاطبهم به الزعيم بورقيبة بتأثر ودموعه تنهمر .

عدالة هذا المدير

كان التلامذة يتجمعون أمام مدخل المدرسة في انتظار فتح أبوابها للدخول إلى الأقسام ، وكنت جالسا على عتبة أحد الأبواب فاقترّب منّي تلميذ يهودي يدعي أنّه فرنسي الجنسية لأنّ والده قد تجنّس بها أمّا مهنة أبيه فهو عدل منفذ وضايقني في جلستي ثمّ دفعتني دفعا قويا ليطردني من المكان فتمسكت بالبقعة فصفعتني على وجهي فدافعت عن نفسي وتصارعنا فصرعته ومرّغت وجهه ورأسه في التراب فعمشى إلى أبيه يبيكي واشتكى إليه فقدم معه وحاول أن يقبض عليّ ليضربني فلم يتمكن من ذلك ، وقابل المدير واشتكى إليه فأحضرني وسألني لماذا ضربت التلميذ « نوربار » فقلت له إنّهُ هو الذي اعتدى عليّ فدافعت عن نفسي وسميت التلامذة الذين حضروا المعركة فسألهم فشهدوا بأنّ اليهودي هو البادي بالاعتداء فقرّر المدير عقابنا بالحجز بأربع ساعات يوم الأحد ومثلها يوم الاثنين فلم يرق للعدل المنفذ هذا الحكم واقترّب منّي ليضربني فمنعه المدير واحتجّ عليه وأطرده فهدّد بتقديم شكوى إلى المراقب المدني فقال له إنّ إدارته على مقربة منّا ببضعة أمتار فإذهب إليه حتّى الآن ، وعند انتهاء الدروس في المساء أصلح بيننا وعفا عنّا

وأبطل العقاب الذي قرره .

تلقين الحكمة لنا لنعمل بمقتضاها :

كان من حين إلى آخر ينقل لنا حكمة من الحكم ويكتبها في ركن من أركان السبورة لنحفظها ونكتبها ومن بين تلك الحكم التي احتفظت ببعضها .

1 - نصيحة صحيحة في الوقاية من تأثير تغيرات الطقس والاحتياط عند تغيير بدلة الشتاء فقال :

On avril n'onlève au qu'un fil
On mai fait tous ce qu'il te plait
2 - النصيحة حول منافع القيام مبكرًا

Ce qui veut vivre cent ans il se lève au chant du coque
3 - النصيحة الأخرى حول التخلص من الدين

Celui qui paye des dettes s'enrécie
4 - وفي مدح الإبتسامه وفضائلها كتب لنا

الإبتسامه

Un sourire

<http://www.sourire.com> Un sourire ne coute rien et produit beaucoup

Il enrichit ceux qui le reçoivent sans appauvrir ceus qui le donnent

Il ne dure qu'un instant mais son souvenir est parfois éternel

Personne n'est assez pauvre pour ne pas le mériter

Il cré le bonheur au fayer soutient les affaires

Il est le signe sensible de l'amitié

Un sourire donne du repos à l'etre fatigué

Rend du courage aux plus decourages

Il ne peut ni s'acheter ni se preter ni se voler car c'est une chose qui

n'a de valeur Qu'à partir du moment ou il se donne

Et si quelquefois vous rencontrez une personne qui ne sait plus

avoir le sourire soyez généreux donnezlui le votre car nul n'a autant

besoin d'un sourire que celui qui ne peut aux autres en donner

لقاء بعد فراق

في سنة 1942 التحق مديرنا السيد فريطا بالجيش الفرنسي ليدافع عن وطنه

فرنسا ضد الجيش النازي الذي احتلها وحلت الهزائم بجيش المحور بعد معركة كاسيتو في جنوب إيطاليا ودخل الجيش الفرنسي إلى الإيالة التونسية بعد انسحاب الألمان واليطاليان منها . وكان ضمن جيش فرنسا مدير مدرستنا السيد فريطا وكانت إقامته بعمارة بنهج الحلفاء بتونس وعرفت ذلك يوم أن خرجت في صباح يوم جمعة من شهر جانفي 1945 لأتجول في شوارع باب البحر وكنت أسكن في مدرسة تربة الباي بنهج سيدي الصّورودو وعندما وصلت إلى ساحة جول فيري اعترض سبيلي ضابط فرنسي يرتدي زياً عسكرياً فحما ونادى باسمي فلم أعرفه وحينما اقتربت منه تعرّفت عليه فتبادلنا السّلام وسألني ماذا تفعل هنا ؟ فقلت إنني انخرطت في جامع الزيتونة فقال لي وكيف تترك دروسك وتخرج تتجول في الشّوارع ؟ فأجبتّه أنّ يوم الجمعة هو عطلة أسبوعية واستدعاني للغداء معه فترددت فأمسكني من يدي وقال لي أنسيت أنّي والدك الرّوحي ؟ واستجبت لدعوته وانطلقت معه إلى العمارة التي يسكنها ضباط الجيش الفرنسي . وفي قاعة الأكل الخاصّة بالضباط جلسنا وسألني عن مدرسة مكثر وعن أحوال المدينة وأهاليها وحدثني عن مشاركته في الحرب وأنش تناول الغداء ودعّته بعد أن زودني بنصائحه وأوصاني بالكد والجّد والإجتهاد وأعطاني علبة مملوءة سكرًا وتمرا وحلوى ووضع في جيبني نقودا وحثّني على زيارته كلّ يوم جمعة وإذا لم أجده فابته يكون قد سافر إلى مدينة مكثر لزيارة زوجته ، لقد غمرني هذا الأب الرّوحي بعطفه ولقد فارقنا ولا ندري أي تربة ضمت عظامه إن توفي وإذا كان على قيد الحياة ففي أي مدينة يقيم ببلاده فرنسا .

المدرسة الابتدائية العربية الفرنسية بمكثر 1936



كتابات على سقف السماء

نصر: المكِّي الهمامي

* تصدير:

هذا النعي على الأبواب مختلج

الموت مات ولم يظفر بمن عشقوا

* محمد الفزي

وأقاموا في الأعماق واحتشدوا
حطَّت بها الأشواق تنقذ
أصواف حلم إن هم ابتعدوا
سجد الإله لها وما سجدوا
ودفنت في نهدِها من جحدوا
ويفور في أصفاءها زيد
خمر العشاق إذا وجبوا
ظلماً سنجياً لسنا نقتصد
وإمض فلا قيد ولا صفد
ويكى على صفحاتها الأمد
تأتي لها الأنهار تنحد
وأنام حذر الموت إذ رقدوا
ضاجعتهم في القبر إذ خلدوا
كفنتهم بالخمير إن لحدوا
وتركتهم يسقيهم الأبد
وينام في أعماقها الجسد

يا ... هل أتاك نعي من عشقوا
ها أنهم في الكف مرمدة
من أي ربح سوف أنجس
هي ذي عتيبات الجنون بها
هب أنتي أوقدتها نجما
ستجيب من ثبح السما حلما
من ذا الذي يستحلب امرأة
إن ضنكت الأفواه بالطلل
فتح أكف الشمس يا أبتني
ها قد تهشم سقف ذاكرتي
وحبكت من خيطانها امرأة
في القلب أتكون ساطفته
إنني على عشق على تعب
وأقمت في الأموات معتقدا
وأذبت فيهم ثغر ألهة
لأجوس أنفاق الرؤى ثملا



اعتراف

شعر : نجيب عبد السلام

إذا كنت أنسى قلن أنسى يوماً
بأنني بدونك مثل الشريد
أعيش النهار بقلب كسير
ونومي سهاد وإيلي جليد
وسرّي تألم طير حبيس
وجهرّي مخاض بدون وليد

إذا كنت أنت ملاذ انشراحي
وعطرا ذكيا يشقّ صباحي
فأدنى نسيم يذيب رياحي
لأهوى الحياة برغم الجراح
وأشدو المباح وغير المباح
فما العيش إلا تقيض النواح

<http://Archivebeta.com>

هو العيش أنسى يدع الجمال
لطيف خفيف برغم المحال
ألست التي حين عزّ المنال
برغم الصعاب شددت الرحال
إليّ وفيّ غرست السؤال
ليس المحبّ الذي لا يبالي

أخيراً أتيت إليك
وألقيت عطر الوجود عليك
فحلّ اليقين مكان الشكوك
وطوعاً لبست لباس الملوك
فهاك يداي ومات يديك
لفجر تورد من وجنتيك

أُمُوتُ عَشَّاءَ

شعر : الحبيب دربال

هَلْ أُمُوتُ عَلَى شَفَةِ امْرَأَةٍ لَمْ تَعِشْ أَعْنَفَ الْقُبُلَاتُ
لَيْلُهَا مَوْعِدُ لَانْتِحَارٍ جَدِيدٍ
وَعَلَى وَجْهِهَا تَلْتَقِي لُغْتَانُ :
فَهِيَ خَجَلِي إِذَا أَلْتَهَمَتْهَا يَدَايُ
ثُمَّ حِينَ أَوَاجِهَا مَرَّةً ، مَرَّتَيْنِ ، ثَلَاثًا ...
تُمزَّقُ فُسْتَانَهَا بِيَدَيْهَا
وَتَمْضِي إِلَيَّ
وَكَمْ تَفْقَدُ عِنْدَ عَوْدَتِهَا صَوْلَةَ الْكَلِمَاتِ
فَتَخْرُ أَمَامِي مُعْنَفَةً كِبْرِيَايَ ، جُنُونِي وَطِفْلًا
جِئْتُ تَحْتَهُ رُكْبَتَانِ
- وَهِيَ إِذْ تَتَرَصَّدُهَا أَعْيُنُ السَّاهِرِينَ
وَيَسْعَى إِلَيْهَا فَتَى عَاشِقٍ نَاهَزَ عِقْدَهُ الرَّابِعَ
مُنْذُ يَوْمَيْنِ
تَفْرُ كَمَثَلِ الْحَمَائِمِ تَيْهَا
عَلَى صَدْرِهَا يَشْرَبُ السُّؤَالُ لَذِيذًا كَوَاحَةَ عِطْرِ
وَتَبْقَى الْيَدَانِ مُعْلَقَتَيْنِ إِلَى أَنْ تَحِينَ
مَوَاعِيدُ أُخْرَى
وَيَقْضِي الْفَتَى يَوْمَهُ بَيْنَ مَوْجٍ عَتِيٍّ وَمَوْجٍ سَخِيٍّ ...

تَرَى هَلْ يَكُونُ لِهَذَا الْمَكَانِ جَوَابٌ
وَطَعْمٌ شَهِيءٌ؟

وَأَيُّ جَوَابٍ تَرَى يَشْتَهِيهِ؟

وَهُوَ يَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ

أَنْ جَارَهُ شُعْبَانَ قَدْ مَاتَ مُنْتَحِرًا ذَاتَ صَيْفٍ

وَلنَفْسِ السَّبَبِ

وَأَمَامَ خَلِائِقِ شَتَّى

وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ الَّتِي قَتَلَتْهُ سَتَقْتُلُهُ ثُمَّ

تَقْتُلُنِي ...



يوميات تلميذ ... حزين

أمنة الولاتسي

هل كانت خائفة عندما وقف أمامها فجأة وهي تشق الساحة المتلاطمة إلى القاعة ؟

بلى هي خائفة ! هاهي تنتظر في جميع الاتجاهات وتركّز على مكتب القيم العام وتستحقّه - بينها وبين نفسها - أن يرحل بسرعة .
ولعلّه لاحظ عليها ذلك إذ أضاف بعد التحية :

أدرك أنني أخرجك ، ولكنني مصر على أن تعرفني بعض الأشياء ..
واختلطت من يده الممدودة إليها صفحات مطوية دسّتها بسرعة في جيب ثوبها الأبيض بينما كان هو يقف في اتجاه الخارج ، وبقيت صورة نظارتيه السوداوين عالقة بذهنها .

الإربعاء... ARCHIVE

إنّني حزين ومقهود ، من أين يأتي كل هذا الحزن ؟ ليتني أتبيّن المنبع فأُسده !
ليت لي القدرة على سحق تراكماته . لا ، هذا ليس حزنا ، لا بدّ أنّه شيء آخر .
فمتى كان الحزن يسمع ويسري على اللسان وتراه العين ويتشبّث بكل مسامّ البدن ؟ من أين يأتي كل هذا الحزن ؟
ولم ؟ لم ؟

ما أفضع قدرتها على التقلب !
بكلّ ما كانت تقف به أمامي تقف به أمامه ... تتلوّى كما معي ، وتبسم كما لي ،
وتقرقر ضحكها بلذة كما كنت أسمع ...

من أين تأتي بكل هذه القدرة على التقلب ؟ ومن أين يأتي كل هذا الحزن ؟
أيّ نار تلك التي كانت تلهب حواسّي حتّى وقفت أمامهما ؟ أمامها ؟ وأنا أعد نفسي بالتشفي من وقع المفاجأة عليها . مفاجأة خيانتها لي على قارعة الطريق ومع أحد ممّن أكره . بم أسميها ؟ لعوب ؟ فاجرة ؟ إنّها فوق كل ذلك .

« ماذا تريد ؟ » قالت وهي ترفع عليّ نظرة مترفعة حقودا .

لماذا طال صمتي أمامها ؟

وأضافت : « يا لك من متطفل ! » وهي تجذبه من يده وتبتعد معه وتختلط

ضحكاتها وبقية الحكاية ...

قلت وأنا أنظر إلى السماء : إنني الحزين المقهور ...

الخميس...

أقسم أبي بأغظ الإيمان فلم أصدقّه . وأقسمت أمي برأسي بصدقها .

قال : أقسم بالله وبرسوله أنني لا أملك ثمن ما تطلبه .

واندفع في سلسلة من العمليات الحسابية يقسم وي طرح ويضاعف ويجمع ويخرج

بنتيجة واحدة : لا مجال لأن يمدني بثمن ما أريد شراءه . وعندما أنهى كنت أقول

في داخلي : « ألا تعلم أنني أكره الحساب وأكرهك معه ؟ »

وبغضني صوت أبي خارج استنتاجاتي : « ثم لماذا تزعجنا ؟ نحن مثقفون على

أنه لا أكثر من كسوة للشتاء وأخرى للصيف . أبناء الأغنياء تمشي معهم في

الطريق ، وتجلس معهم في القسم ، فقط . ماذا تفعل ؟ نبيع أنفسنا لتتشبه أنت

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

بهم ؟ »

ونبتت الجملة فوق شفتيّ نون رقابة :

« بينما أنت تبيعنا جميعا »

وغادرت المكان الذي عربدت فيه لهجة أبي وهو يتسائل :

« ماذا قال ؟ الكلب ! أيكذبني ؟ هذا ما نريحه من مدارس الشوم ، قلة الحياء

و ... »

وقفت قبالي قليلا وأنا معدّد على السرير ثم جلست إلى جانبي وأدخلت أصابع

يدها في شعري وبالأخرى أمسكت يدي :

« لا أريدك أن تغضب ، ذاك هو مزاجه وما بقي لنا إلا الصبر والإحتمال . أنا

سأشتري لك ما تريد . الظروف صعبة على الجميع هذه الأيام والزبائن قليلون وأنت

ترى أنني أكاد لا أجلس إلى الآلة . أريد دائما أن كون الأفضل والأجمل ، وألا

تموت رغبة من رغباتك أمام عيني ، ولكن ... »

كم أحببك ! ملاذي أنت ومثاوي وسندي . أيتها الحبيبة المحبوبة المحبة .

الجمعة...

أشهد أن أستاذ التربية الدينية كفاء ، واسع الثقافة ، متمكن من المادة المدرّسة ، قادر على الإقناع ... حتى أنه يسحرنا أحيانا عندما يحلّل أو يضرب المثل ، إنني على كل هذا شهيد .

ولكن أستاذ التربية الدينية ينهج صرامة غير معقولة .

إنّه يأخذ البريء بالذنب والمبتسم بالضاحك والصّامت بالمتكلم ، صحيح أنه ييسّر في كلّ مناسبة بمعهد جديد لمدرّسي التربية الدينية ، ويعد بأنّ يحو من الذاكرة - الجماعية كما يقول - صورة مدرّس التربية « الأضحوكة » ولكن لا ذنب لي هذا اليوم حتّى يطردني من الدرس مصحوبا بإنذار .

لقد كان هو يتحدث بحماس مشهود عن شدّة أحد الصحابة في الحق وعن شراسته في مواجهة المخالفين ، ولا أدري إلى الآن ما الذي جعل صديقي الجالس بجانبني يعلّق :

« مثلك أنت ! »

وانفجر الجميع ضحكا ، ووجدت إصبع الأستاذ تقتلعني من مكاني وتذهب بي إلى الباب .

ونظرت إلى صديقي فوجدته ملفوفا في الصمت والجبن فخرجت لا أُلوي على شيء .

الثلاثاء...

متى تحصل المعادلة ؟ متى يلتئم الشمل ؟ متى أنتفّس بارتياح ؟
انتباه ومراجعة ومذاكرة مفردة وجماعية ثم يأتي العدد ضئيلا ، تافها متمنّعا كائن المستحيل .

ومع كلّ خيبة يعزف الأستاذ على النغم نفسه :

« لا مجال لتضخيم العدد وأنتم في سنتكم النهائية ، تحصلون على ما تستحقّون » .

أيها الجهد المضيء ، يا سهر الليالي لماذا تذهب هباء ؟

الإربعاء

اندفعت خارج غرفتي .

كانت ضجّتهما تملأ البيت ، لأول مرة تقريبا يأتيني صوت أمي قويا محتجاً رغم الإنكسارات التي تخنق بدايات الجمل أو نهاياتها :

« سافل ، كذاب ، الجميع يروون قضائحك معها ... »

وفجأة ألقى الضوء على أشياء كثيرة كانت غامضة في ذهني : 'ياب أبي المتكرر - منذ عرفته - وحزن أمي والبرودة التي تطبع علاقتهما دائما وأسياء أخرى كثيرة .

وعندما غيَّبه الباب كانت أمي تغلقه بقوة رهيبة وهي تقول :

« لا ردّ الله الخائن الغدار ! »

واستدارت مولية فوجدتني أقف أمامها مباشرة ، أيّ ألم كان يشدّ ملامح وجهها !

لعلّها بوغت للحظة ، ثم وجدتني - نون أن أدري كيف - تجهش في أحضاني . طوّقتها بذراعي وأخذتها إلى صدري في لهفة محمومة ، لو عاد أبي الآن لقتلته !

ورشحت دموعها طوال اليوم بين الغرف والمطبخ وعلى آلة الخياطة ... وغرقنا

معا في حزن صامت مطبق كأنه الموت .

ARCHIVE

الخميس ... <http://Archivebeta.Sakhril.com>

كيف حصل ما حصل ؟ يستبدّ بي هذا السؤال فيرفعني ويخفضني عبر الدقائق والساعات ، ويحول بيني وبين كل شيء . لا نوم ولا أكل ولا كلام ولا خروج من الغرفة .

هاهو كل شيء ينهار ويتلاشى ويتوه كأنه لم يكن . وها أنا أجبر على التوقّف حيث أنا بعد أن كان المسلك واضحا والعبء خفيفا .

ماذا سأفعل بعدما حصل ؟ وكيف حصل كل ذلك ؟

يغلي هذا السؤال في وعيي ووجداني ويسدّ عليّ جميع منافذ الهرب : إنك أضعت كل شيء وستبقى حيث أنت . لا أبواب تلجها ولا نوافذ تسرح من خلالها النظر .

هل أصدق أنني فعلت ما فعلت ؟ وأنني هجت مثل ثور الرقص الإسباني ؟

عندما قصدت المعهد ذاك اليوم كنت أحوي داخلي كومة من الحزن . كانت

صورة أُمِّي تتعدد داخلي وتتنوع ، وانتقلت بين وجهها الباكي المجيش الحزين الصامت . حتَّى أنْ بعض الأصدقاء استأْذوا وفسَّروا ما أنا فيه بما يحلو لهم ويسلي . ولكن وعيي كان يقبض على صورتها بإلحاح ولأيدعها تختفي مِنِّي لحظة لماذا فعلت ما فعلت ؟ وكيف حصل ما حصل ؟

كانت الرغبة جامحة في زحزحة الصورة إلى مكان آخر ، هذا ما أذكره ، ولكني لا أذكر تحت أي ضغط وجدنتني أخذ قلما غليظ اللسان من أحد جيوبي وأبدأ برسم الصورة على الجدار بجانب نافذة تفصلها أخرى عن مكتب القيم العام .

بدأت برسم الشعر وجعلته متهدلاً - على خلاف شعر أُمِّي المشدود دائما وراء أذنيها أو تحت لحاف - وعندما أنهيت رسم العينين بدا لي أنهما تنزَّان دمعاً فوق الجدار ، استغربت ذلك ولكنني تتبَّعت حَبَّات الدمع بالقلم . كان لونه أسود وكان ينزلق بطراوة على بياض الجدار المشع ، ثم رسمت الشفتين ... ممثلتين صارمتين وأنهيت الصورة وتأمَّلْتُها . كانت تأخذ حيناً هاماً من الجدار . هل كانت تشبه أُمِّي ؟ ورسمت حولها عصافير وزهوراً وتحتها بدأت أرسم كلمة « أُمِّي » .

ويبدو أنني كتبت الألف وعليه همزته ، كتبتة فعلاً لأنني حوسبت عليه ووقع تذكيري به . ثم ماذا ؟ صفة قوية تنزل على قفاي وصوت غليظ مبجوح يهتف بي « يا ابن الحرام ! ألمثل هذا دهن المعهد ؟ »

ودفعني القيم إلى الامام فكدت أسقط وطارَت محفظتي في الهواء وتناثرت أوراقِي وكتبي .

وصارعت حتى أحافظ على توازني بين كل دفعة وأخرى حتَّى أغلق عليَّ باب مكتب المدير .

وافحتني نسمة باردة كأنني أقف على الشاطئ ولقني اللون الأخضر المريح ينساب على جلِّ قطع الأثاث .

وأثبت المدير عليَّ نظرة من وراء مكتبه ولم يترك له ، القيم العام فرصة للتساؤل « وجدناه يرسم صورة فتاة على الجدار » .

وقلت وأنا أتنفَّس بصعوبة :

« ليست صورة فتاة » .

ولطمني القيم العام .

« كاذب ! » .

ثم وجه الكلام إلى المدير

« رسم وجه فتاة على جدار مكتبي وأخذ يكتب الحرف الأول من اسمها . أية

وقاحة ! أين حرمة المعهد ؟ وهيئة ؟ هذا أحد تلامذة السنوات النهائية . يا للمهزلة

! »

وطحن المدير شيئاً ما تحت أضراسه فتحرك فكّه الأسفل واشتدت الشراسة في ملامحه ... يبدو أنه لا يجد الكلمات التي يفكّ بها عقال غضبه المتجمّع في عينيه وبين الحاجبين . ثم غادر بخطى سريعة وعاد بعد لحظات وخيبة كبيرة تجعل ملامحه أكثر استياءً وانجذاباً إلى الأسفل . ووقف قبالي فامتلات حواسي بالجسم الفارع الممتلئ .

كنت مشتبّاً ومعلوماً بالوعب ولم أتبين أن القيم العام يسألني بالراح :

« صورة من ؟ تكلم صورة من هذه التي تشبه بها جدران المعهد وتستقرّ بها

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

زمالك ؟ »

وتصوّرت أن بوجي بصاحبة الصّورة سيعرّضنا - أنا وهي - إلى إهانات لا تحدّ . فلم أجب .

ويقي يهزّني ويدفعني :

« تكلم ، تكلم ، المعهد ليس من أملاك والدك ، تكلم يا وقح ! وترسم الحرف

الأول من اسمها ؟ »

ثم مخاطباً المدير

« هل رأيت سيدي المدير الحرف الأول المرسوم تحت الصورة ؟ »

ولم يرفع المدير عينيه من على وجهي . وجاء صوت الكاتبة - متى دخلت ؟ - حاداً

مرتفع النبرات :

« لا بدّ أنّها أحلام ... إنني أراه دائماً معها ... »

ما أكثر أعدائي !

وصحت متوجّها إليها : « غير صحيح »

فقات بصوت أكثر حدة :

« تقصد أنني أكذب ؟ »

فرددت وموجة من الغضب تجتاحني :

« نعم تكذّبين ! »

وهوت عليّ صفعه المدير قويّة مؤلّة .

في تلك اللحظة أحسست أنني أدفع إلى فراغ لا ينتهي واختلطت الأصوات في ذهني وأكلني حقد أعمى . فأعلمت يديّ في صدر القيّم العام ودفعته ، ثمّ - بضربة نزار - أسقطت ما كان موضوعا من تحف ومزهريات وأشياء أخرى فوق مرفع صغير على يمين مكتب المدير وصرخت :

« لا تفهمون شيئا ولا تعرفون »

وعندما كان المكان يضجّ بالأصوات وبصراخ الكاتبة كنت أندفع نحو الباب كأبطال أفلام العنف بينما صوت المدير يعلو :

« اتصلوا بالشرطة ... »

ARCHIVE
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

تعقيب :

يومها تعدّدت الروايات حول ما حصل .

اختفى القيّم العام ف قيل إنه نقل إلى المستشفى لأن رأسه اصطدم بأحد رفوف المكتبة . وتدخل المدير في قاعة الأساتذة أثناء فترة الراحة وحاضر حول موجة السلوك الجديدة ودعانا إلى مزيد من الحزم . ولم تكن نعلم نيّة زميلنا - هزلا أم جدّا - عندما عقّب :

« التلفزة هي السبب » .

فضاعت ملاحظته وسط همهمة غير واضحة .

وهمس المقتصد لمجموعة من الزميلات :

« لقد رسم صورة أنس بنت المدير ، رأيتهما أكثر من مرة معا ، وعندما أعلمت

والدها قال : « أنا أحسن تربية بناتي ... »

واستغرب كل من كان يدرّسه : هل يمكن أن يفعل هذا كلّهُ ؟ !

الأقلام الواعدة

إشراف الأستاذ : عبد المجيد زين الصابدين

كثيرا ما نسمع بنزعة الشباب إلى الخروج عن كل ما هو تقليد والتحرر من القيود ، فيذهبون إلى قطع صلتهم بالماضي والتراث وبما يزخر به من ضوابط وقواعد معهودة ، ناسين أنهم مدعوون بادئ ذي بدء إلى الإضافة ، وليست لتسني هذه الإضافة إلا بالاستفادة من القديم وحسن استغلاله .

وإشداً ما تعظم فرحتنا عندما نلاحظ نخبة من الشباب رصينة المنزع راسخة القدم في ميدان الأدب. نثره وشعره أو في سائر الفنون واعية بمسؤوليتها عند الإنتساب لهذا الاختصاص أو إلى هذا الفن أو ذاك شاعرة بحدودها في ممارستها والتمكن والتمييز فيه لاحقاً . كل ما أرجوه من أحبباء هذا الركن أن يكونوا إلى الإقبال على المطالعة والإستفادة منها ما أمكنت الإستفادة وترك الاجترار جانبا والحرص على الإنطلاق من القواعد والثوابت والنصوص القديمة والانفتاح على ما هو جديد .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

* إلى الأنسة فاتن الراجحي :

قد تلقيت أكثر من نص لك يا فاتن ولئن كانت العاطفة فيها متقدمة متأججة تدعوك إلى قراءتها في بادئ الأمر إلا أن الهفوات اللغوية لا تدعك تواصلين قراءتها . كل ما أنصحك به هو أن تعودي إليها منقحة وأن تقرئها قراءة أخرى أو أن تعدينا بنصوص غيرها تستقيم في لغتها وتتماسك في معانيها .

* إلى الأنسة حياة محمدي أصيلة سيدي بوزيد السبالة أولاد عسكر :

أنشر لك نصك المهور بعنوان : « فيلا الأحلام » وأود أن ترسلي إلى مجلتك بأخر أعمالك .

فيلا الأحلام

وفكرت ملياً .. فوجدت نفسي متوغلة في واد بعيد كل البعد عن الواقع ... ولمعت في مخيلتي كلمة " المأل " وكلمة " المبادئ " ، في نفس الوقت وتسلط أيهما أفضل

! أيهما أقوى نفوذاً وسلطاناً ، أيهما أجدى وأنفع للإنسان .. ؟!

ضحكت وأنا أتذكّر قطعة الأرض التي اشترتها أمي وكلّها أمل في بنائها
ضحكت ضحكة بلهاء ، ضحكة الفاشل العاجز الذي يرى ويحس ولا يستطيع
تقديم يد المساعدة ... تسالطت عن مدى جدوى مبادئ وقيمي وأخلاقي " العالية " ..
! وأفلتت منّي ضحكة أخرى لتمعّج هذه المرأة بالدموع ... دموع الألم والحسرة
... فلقد أحسست أن كلمة مبادئ كلمة جوفاء للأسف الشديد وفارغة ... اكتشفت
أنها عملة فقدت قيمتها في عصرنا الحالي وليس نتيجة لتضخم بل نتيجة اندثار
وعدم استعمال وتأملت السماء فترأت لي أمامي الصورة الخيالية " للفيلأ " التي
عاشت أمي تأمل في إقامتها وتشبيدها وسميتها حينئذ " فيلا الأحلام " وشرعت
في تصميمها في الحال فجعلتها في شكل بديع خلّاب يخطف الأبصار وشيّدت "
فلّتي " هذه على رقعة من الكبرياء أسسها المبادئ والقيم ثم جعلت جدرانها أخلاقاً
عالية يصعب تسلّقها وسقفها سلوكاً طيباً وسويّاً يحمينا من برد الشتاء ، أما
نوافذها فقد رسمتها في شكل أحاسيس نبيلة ومشاعر فياضة في حين ازدانت
أبوابها بالفضيلة والطيبة والاستقامة ولوّنتها بالإخلاص والصدق ونسجت ستائرهما
من الأنفة وعزة النفس ... ثم تزيّنت قليلاً ... الجرس ، ماذا عساه أن يكون ؟ ووقع
اختياري أخيراً على أن أجعله ضميراً تنقد نبضاته حيوية .. وهكذا أعدت النظر
في شكل هذا البناء الفريد ولم أكد أنني تأملي هذا حتى أحسست لمسة يد باردة
جعلتني أصحو من حلمي ... فإذا برقعة الكبرياء تتمزق فتملعت الأسس والمبادئ
والقيم لتتهار أما الستائر فقد طارت ثم تلاشت لتتقطع وتهوي أشلاء ... وبهذا
جرحت الأنفة وصرخت عزة النفس وأنّ الضمير المحطم ألماً ...

وهكذا اندثرت " فلّتي " وهي تصطدم بصخرة الواقع المرير بل ابتلعها زلزال
الواقع فصارت بالتالي " فيلاً " الأوهام لا الأحلام .
* إلى الأنسة نورة محمد أصيلة برقو :

إنّ لك قدرة على ممارسة الكتابة الأدبية والشعرية في ذات الآونة وما رسالتك
المؤرّخة بتاريخ 11 أفريل 1995 وما قصيدتك : « رسالة ملفومة » إلا دليلاً
واضحاً على موهبتك هذه التي تبقى دائماً في حاجة إلى الصقل - وإنّي أبارك

نظرتك إلى الشعر ، إذ ترين أن « الشعر ليس دفقا روحياً فحسب بقدر ما هو إيقاع » أجل إنه دفق روحي وإيقاع ولا يمكن لهذا الدفق الروحي أن يرتقي إلى مرحلة الشعر ما دام خالياً من الإيقاع . أشجعك على النهل في صقل الأدب كما أدعوك إلى الكتابة ومراسلة مجلتك بإنتاجك ، أنشر لك في هذا السياق مقتطفات من قصيد " رسالة ملغومة "

هذه ، وإنّي لأظنّ في نفسي الجدارة بذلك
ولكنّ النظرة إلى موضوع الشّهر ربّما
جيلي . فأنّا لا أعدّ الشعر دفقا روحياً
أتذكر نافورة من حنين تبدّت
سراباً على كتف الذّكريات ؟

أتذكر إذ كنّا نشيخ رويدا رويدا
ونلتقط زيتوننا الحنظلي

لملّ الجرار جدول عوسج ؟
كنّا نظنّ بأنّ لا نشيخ !

وأنّ شتاء المدينة سيورثنا المستحيل !

وباتني الربيع

ليزدر فينا بنور الزّمان الذي لن يجيء !

ونحلم ... نحلم ... نحلم ...

بأنّ عشر سنين تقضت ...

عجافاً ... سراعاً ... سراعاً ...

وأنّ الشّتاء الحزين سيعمل يوماً بدرّب الحديقه ،

وأنّ عشراً سماناً ستاتين

ليملأنّ بيدرنّا سنابل قمح وحبّ

ولكنّ حادي القطيع توقّف ... !

وبنّادى منادٍ بأنّ الطريق طويلٌ ... طويلٌ

فأين السّبيل ؟ .. وكيف السّبيل !

وكيف طريق بلا ناي حاد ولا أغنيات ؟
وكيف يكون الخريف حزينا ... كريما

بدون تراتيل حب كبيرة ؟

* إلى الشاب النبيه رضا العباسي أصيل حجاب العيون .

لقد احتضنت مجلة الإتحاف عدّة قصائد لك أيّها الصديق رضا ، ولكنّها تكاد تكون ذات موضوع موحد ألا وهو الوطنية . وبالرغم من توحّد الموضوع فإنّ لقصائدك طعما خاصا . بيد أنّ التنوّع في أغلب الأحيان يبدو مثمرا وناجعا ولربّما يضيف على قصائدك مزيدا من الحيويّة والتألق . أسوق لك في هذا المجال ما عنوانه : << قصائد قصيرة >>

قصائد قصيرة

1 - البلبل

ومن ؟!

غيرك أنت

ورغم عصري المزمّن ؟!

من بعد بـورد النّصر ؟!

أعرف بأنّ بلبلتي

سيشيدو على فنان ؟! [hivebeta.Sakhr](http://hiv-beta.Sakhr)

ودفن طلقنم المحن ؟!

3- الإعصار

في يوم مؤمن ؟!

ورغم الخفّاش

ساقبر بحر الشجن ؟!

الذي لا يزال يفزّو

وأغرس وردا معطارا

فدمي إعصار

في قلب الوطن

إذ ينزّ ؟!

2 - كالصقر

يصمد

عنيف أنت

يشمخ

كريح صرصر !!!

يهفو

كن كلحن يتناغم

للمجد ... للعرّ ؟!

على فنان

وأنشد أمزوجة للوطن

فمن يعزف الموال ؟!

بين الإتحاف الأصل و الإتحاف الفرع أو

النسبة التي لا تموت والرحلة التي لا تنتهي

بقلم : د . أحمد جدي

لن يكتمل الكلام على الكلام كما لا يفلق ملف الكتابة على الكتابة والكاتب والكتاب ، فالنص نصوص والآثر آثار والعالم عوالم ولا حدود لمعنى المكتوب حتى إن ضبطته الكتابة حرفا وقاعدة . فممتع الكلام ما يتحفك وما لا تنساه ، ومتحف الكتابة ما يمتعك وما يبقى بعد الموت ، إذ يفعل فعله في الفكر والذاكرة والوجدان ... هذا الكلام ، إن وصل مستوى الخطاب والفكر أو ظلّ عن كلّ ذلك ، فهو مرتبط إلى حدّ ما - في منبعه وتعبيراته وتضاريسه برحليتي مع ' الإتحاف ' والتخامي به وبها ، به ككتاب ، أي إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، وبها كمجلة ثقافية جامعة' ولذلك أو لكلّ ذلك ، كلام أوّل وكلام ثان وكلام آخر .

الكلام الأوّل و' الإتحاف'

يبدأ الكلام الأوّل عن ' الإتحاف ' في عنوانه الكامل ' إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ' لصاحبه أحمد بن أبي الضياف . ذلك أنّ رحلتي معه تطوّرت إلى حدّ التفاعل فالإلتحام والمعاشية فالمعاشرة والتفكير العميق فمن أثر عادي في ذاكرتي وتكويني واهتماماتي الأولى لما كنت تلميذا بالتعليم الثانوي ، إلى مصدر من مصادر التاريخ التونسي الحديث وخاصة القرن 19 عندما كنت طالبا بالجامعة وفي قسم التاريخ ، إلى بحث أكاديمي إشكالي في التاريخ الثقافي والفكري التونسي الحديث عندما أصبحت باحثا بعد الأستاذية - في جامعة نيس بفرنسا ، لإعداد دكتوراه دولة - في التاريخ والحضارة . كان ذلك من 1967 إلى 1987 ، فالتاريخ الأوّل يجسّد علاقاتي الأولى بإتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان . والتاريخ الثاني يمثل نهاية مرحلة تجسّمت في مناقشتي لأطروحتي حول ابن أبي الضياف وكتاباتة وخاصة الإتحاف وفكر الرّجل كما يمثل التاريخ الثاني بداية مرحلة أخرى ، مرحلة الأسئلة الكبرى في مواضيع أخرى لا

تقلّ التاريخ الثقافي والفكري والحضاري عموماً ، أعني الأسئلة الأنثروبولوجية المشحونة والمشروطة بالتاريخ .

مناقشة أطروحتي حول الاتحاف وكتابات ابن أبي الضياف وفكره هي رغبة - ليست في نيل شهادة ولقب علميين أو ممارسة البحث والدراسة - بل محاولة الإجابة عن سؤال مركزي وخطير في نفس الوقت مثل منطلق بحثنا واهتماماتنا :

- ما سرّ كتابة إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ؟

هذا الأثر الذي كتب في السرّ والصنم والحذر والقلق والخوف - حتّى إن كان مؤلفه من رجالات النُولة والقلم وبواليب البلاط الحسيني . لقد كتبنا الكثير في بحثنا وأبرزنا عديد الجوانب من فكر ابن أبي الضياف وشخصيته وكتابات وخاصة الإتحاف والأسئلة التي تطرح من صميم الرّجل وأعماله .. وداقنا - ولا نزال - على نفس المبدأ والحقيقة : لا نجد مثيلاً لإتحاف أهل الزّمان ، كما أنّ ابن أبي الضياف من أثرى وأعمق وأعقد الشخصيات الفكرية في تونس القرن 19 ، تتجاوز في الكثير من المستويات خير الدين وقابادو وبيرم الخامس والباقي المسعودي ... لكن الرّجل لم ينل حظّه من الدراسة والتعمّق ... ونعتقد أنّنا ببحثنا لم نبين كلّ ابن أبي الضياف أو كلّ فكره فهذا ليس طموحنا لأنّنا نتصوّر الأطروحة اشكالا لا ينتهي وملفا لا يغلق بل تفتح حسب ظروف وشروط أسئلة معيّنة في حاجة إلى إجابات معيّنة ودقيقة . ونحن متأكدون من أن ابن أبي الضياف واتحافه يعاصرانا ويلازماننا في حياتنا العامة والخاصة ويكفي دقّة القراءة والملاحظة والمقارنة والربط للقول بأن الرّجل وكتابات يفرضان علينا فرضاً ، فالماضي حاضر بشكل ما والتاريخ اشكاليات وليس حدثاً وتاريخاً والنصوص ألغاز وربود فعل وأسئلة محيرة لا تجيب عنها الرياضيات والعلوم الصحيحة أو الدقيقة إذ الكتابة رسالة ومسؤولية ، لتكون القراءة قراءات والتفسير تفاسير ، ذلك أنّ إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان مصدر لا يهْمش ، وأصل لا يقرّم ونبتة لا تموت ، لأنّه أعطى وأثمر ، ومن عطائه وإثماره ، مجلّة الإتحاف ، فهذا العرف من تلك الشجرة

الكلام الثاني والإتحاف

إنّ كتب إتحاف أهل الزّمان بباب سويقة بتونس الحاضرة ، في بيت ابن أبي

الضياف، فإنَّ مجلةَ الإتحاف ظهرت - فكرة وإنجازا - بسليانة ، موطن والد ابن أبي الضياف ، وفي اختيار اسم من هذا القبيل لهذه المجلةَ ، أكثر من دلالة ورمز ، نحن متأكدون من أن الفرع لا ينفي الأصل ولا ينتكّر له ، بل يستمدّ منه شرعيته ويضفي عليها أسئلةَ الحاضر ومشاغله لمستقبل أرحب وأجمل وأسمى . من هذا الجانب ، ليست هناك قطيعة بين زمن ظهور " الإتحاف " الأوّل ، وزمن ظهور " الإتحاف " المجلّة ، وعدم وجود قطيعة بين تونس ، مولد " إتحاف أهل الزّمان " وسليانة مولد مجلّة " الإتحاف " ، فالإستمرارية ليست التطابق والتماثل ونوبيان هذه في هذا . لقد تمّ الالتقاء بينهما - في زمنين مختلفين - بواسطة الكتابة والفكر والثقافة وحصل الاختلاف ، فمن كتاب مصدر إلى مجلّة مرجع ومن كتاب لمؤلف إلى مجلّة لكتاب وباحثين وأقلام عديدة ، حتى إن كان الأستاذ عبد القادر الهاني من رجالات المجلّة المميّزين والمتميّزين ، باعتباره مؤسس المجلّة ومديرها المسؤول وكاتبها فيها كذلك ، ومع ذلك فهو ليس وحده فيها أو وحيدا أو واحدا ، وهذا لعمرى ، سرّ قوّة مجلّة " الإتحاف " : الإستمرارية في الاختلاف والتنوع وعدم التتكرّر ، فكيف بدأت علاقتي بمجلّة " الإتحاف " بعد أن تعمّقت مع الإتحاف كمصدر ؟

في أحد أيّام جويلية 1985 وأنا بشوارع رئيسي بتونس العاصمة أتصفّح بعض المجلّات والنشريات ، وجدت أمام العدد الأوّل للإتحاف بالخط الأسود على غلاف أصفر . تصفحته كاملا وبتأنّ لأنّه لم يتجاوز 42 صفحة وتأكّدت بعد ذلك من ضرورة اقتنائه ب 600 مليم ، وأعدت ليلتها قراءة العدد الأوّل لانتبّت من هويتها ومصدرها فوجدت بسرعة أنّها ، فضلا عن اسمها التاريخي التراثي " الإتحاف " مجلّة ثقافية جامعة بإشراف اللجنة الثقافية الجهوية بسليانة " ، مديرها الشرفي الأستاذ محمّد المعالج ، ومؤسّسها ومديرها المسؤول الأستاذ عبد القادر الهاني ، وأسرة تحريرها نخبة من رجالات سليانة : مصطفى القرواشي والهادي عبد الملك ومحمّد غرس الله ومختار علي والمنصف اللواتي أمّا الخطوط والرّسم والتصميم فتقاسمها خليفة التليلى وخالد بلقاسمي . هكذا كانت بداية الإتحاف ، حتّى إن طبعها تمّ في سليانة " سنير " لأنّها الآن تطبع في تونس العاصمة بمساعدة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) وفي هذه الرّحلة من حيث الطبع - من

إلى تونس - تاريخ مشحون بالعمل والإرادة والأمل ولا شك كذلك بالصعوبات ،
وكمجلة جهوية ناشئة ، جلب العدد الأول انتباهي من حيث نوعية الأعمال ، إذ بويت
للبحوث والدراسات والإبداع الشعري والإبداع القصصي فكتبت فيه أسماء معروفة
في تونس والوطن العربي : عبد الكريم المراق ، يوسف عبد العاطي ، عبد الله مالك
القاسمي ، الهادي عبد الملك ، الحفناوي الماجري ، وغيرهم . وتناولت المجلة في
عدها الأول التاريخ والأدب والدين والفلسفة والقصة والديمقراطية والسياسة والشعر دراسة
أو إبداعا ، وأصبحت منذ ذلك العدد الأول أتعامل مع مجلّة ، الإتحاف قراءة لها
وكتابة فيها وذهابا لها في منشئها سليانة لمعرفة محيط ولادتها ورجالاتها ، كيف لا
وهي تحمل عنوان مصدر شغلي ولا يزال . واليوم يوجد بمكتبتي كل أعداد
الإتحاف ، أي 59 عدد تزيّن حقًا المشهد الثقافي التونسي المعاصر ، والذي
يقارن بين الإتحاف في عدها الأول وعدها التاسع والخمسين ، يندهش ، بعد
التأكد - من التحول النوعي في مسيرة وتاريخ هذا المولد الثقافي - الجهوي في
بدايته - والوطني / القومي في مرحلته الحالية - والعالمي أخيرا ، إذ لم تعد
الإتحاف حكرا على أبناء وبنات سليانة ، فسرعان ما قبلت أقلام التونسيين من
مواقع واهتمامات ومستويات وأعمار مختلفة : جامعيين ، أدباء ، شعراء ، أطباء ،
محامين ، تلاميذ وطلبة ، مناضلين ، مدرسين في الابتدائي والثانوي ، بل اتسعت
لأقلام عربية ، مشرقا ومغربا ... وفي هذه الرحلة مع الإتحاف ، لم ينس الأطفال
الذين فكّرت فيهم فأهدتهم قطاف الإتحاف وهي ممتعة ومتحفة حقًا بشهادة
أطفالي عارف وعبير وعدنان الذين بدورهم ساهموا في نشرها في وسطهم التلميذي
، يرجع الفضل للإتحاف في متابعة أعمال ملتقى المصلح والمفكر أحمد بن أبي
الضياف الذي يقام بسليانة ، وفي مكتبتها العمومية التي تحمل اسم المصلح
باعتبارها في مقرّ دار الشباب والثقافة لابن أبي الضياف بسليانة ويمكن بحق
دراسة الإتحاف كمنتوج ثقافي تونسي معاصر ، إذ استطاعت المجلة اكتساح
الساحة الثقافية والأدبية والإبداعية لتأخذ موقعا متميزا نفتقده ، للأمانة - في
أماكن عديدة من تونس مثل القصيرين ومدنين وتطاوين وتوزر والكاف وباجة
وجندوبة وقابس وبن عروس وأريانة حتّى أنّ سيدي بوزيد بعزيمة محمود الحرشاني

وزغوان لهما ما يميّزهما في هذا المستوى أعني : مرآة الوسط والحنايا . وتحرم
الإتحاف على متابعة النشاط الثقافي أو التظاهرات الثقافية في بلادنا وتمدّها بلغة
شعرية ومكثفة للقارئ ودأبت منذ سنوات على تنظيم تظاهرة طريفة - حسب
اعتقادي - حسب اعتقادي - تتمثل في دعوة المشاركين فيها مرّة في السنة - عادة
في شهر جويلية - يلتقون حول طموحات الإتحاف فهو لقاء - ضيافة - عمل ولا
غربة إن تطوّرت هذه التقاليد لتفرز هذه السنة عددا خاصا بالعشرية الأولى
للإتحاف للإحتفال بها يومي 14 و 15 جويلية 1995 . أنا مؤمن بأن وراء الحدث
إرادة حياة ورغبة حادة في نحت المصير : مصير الإنسان ، مصير الثقافة ، مصير
الكتابة ، مصير سليانة ، مصير تونس ، مصير الإتحاف ... لقد كانت المكتبة
العمومية بسليانة من المكتبات الأولى في البلاد التونسية التي أهديتها أطروحتي
حول ابن أبي الضياف ، ولقد كانت الإتحاف من المجلات التونسية الأولى التي
أنا سعيد جداً بالمساهمة فيها ، إيماناً منّي بأنه لا مركز في الثقافة والإبداع ولا
مركزية في الفن والحياة وإرادة الكتابة والتأسيس ، فالفقر الحقيقي هو فقر الفكر
والأمل والإحساس ، وقد يتحوّل إلى الشيطان وفقدان الذاكرة ، وفي ذلك الموت
الحقيقي . لقد اختارت سليانة بواسطة الإتحاف أن لا تموت فهي بالإتحاف
تجهد وتتمتع من أجل الحق في الحياة والحق في الاختلاف لذلك ، ولغيره كثير
قرأت وأقرأ الإتحاف براحة فكرية كبيرة ، ولذلك أكتب ، حسب ظروفي للإتحاف
ولذلك ، أحضر حسب الوقت والإلتزامات ، التظاهرات التي تنظمها الإتحاف
خاصة وأنّي عرفت سليانة من الدّاخل ومن تحت سليانة التاريخ والتحدّي . أنا أعلم
علم اليقين اليوم أنّ الإتحاف كمجلة ثقافية جهوية من سليانة لا مثيل لها في بقية
الولايات والجهات التونسية ، حتّى تلك التي هي اقتصاديا وديموغرافيا متميّزة عن
سليانة . فالفرق ليس في المال والبشر والموقع الجغرافي ، بل روح الاختلاف كامنّة
في نوعية الإنسان والفكر ، فالبشر معادن . الإتحاف لا تتحفك وتمتع فقط ، بل
تطرح عليك أسئلة محيرة ، أسئلة وجودية : ما سرّ الحياة ؟ ما معنى الوجود ؟
ولادة ، أكل ، نوم ، جنس ، لباس ، مال ، عمل فموت ؟ أم أشياء أخرى ...؟
الإتحاف أمل والإتحاف مشروع والإتحاف مسؤولية ، أمل كلّ الذين

يرغبون في الحياة بالكلمة النبيلة والثقافة السامية . مشروع يتطلب العمل المشترك على اختلاف الأعمار وتباين المواقع والمواقف والرؤى . مسؤولية التأسيس والبناء والإستمرارية ، من أجل غد أفضل وأرحب وأمتع وأتحف ... غد نصنعه ولا ننتظره ، غد نجد فيه أنفسنا ولا نشعر فيه بالغربة أو بالإغتراب ، غد لنا فيه قرار ولا تسلط علينا فيه القرارات وهذه من روح 'الإتحاف' الأصل و'الإتحاف' الفرع والإتحافات الآتية ... وفي ذلك كلام آخر .

الكلام الآخر : هذا الكلام للجميع ولكل من ربطته الحياة بالكلمة والحرف والكتابة والقراءة والفعل الإبداعي والثقافي . فالكتابة تحرر وتحرير والإبداع سموّ بالإنسان إلى درجة الكمال والإكتمال واللامحدود ... و'الإتحاف' منخرطة في هذا الإختيار - الذي لا بديل له في اعتقادنا - فالكلام الآخر 'للإتحاف' ليس آخر كلام ، بل هو : شرقت فشرفت ، عملت فعملت بالمحبة والتقدير والتشجيع ، ساندت فسوندت . فماذا تبقى غير الإستمرار على نفس الدرب بأسئلة الحياة ، أسئلة الثقافة ، أسئلة تونس ، أسئلة الوطن العربي ، أسئلة الإنسانية ، والكلام الآخر كذلك ، عبر 'الإتحاف' أن تعرف مدن تونسية أخرى وجهات تونسية أخرى ، ما عرفته سليانة ، أي 'الإتحاف' ولكل مدينة وجهة 'إتحافها' طبعاً ، دون تقليد فاختلاف والعمل الذؤوب والأمل المشروع روح الحياة وشرط الإبداع ، نقول ذلك لكي تكون للإتحاف أخوات في تونس ولكي لا تعيش الإتحاف وحيدة في تونس في مستوى المجالات الثقافية الجهوية ... وكلامنا الآخر ، مزيداً من الإتحاف والنحف يا 'الإتحاف' ، من الذين يقضون معك وبك وحوالك ومن أهلك ، وليس هذا بمستحيل عمّن آمن بالفعل والإبداع والمستقبل ، فسلامي إليك يا 'الإتحاف' ولتكن رحلتك واختياراتك في مستوى طموحات محبيك وقرائك وكتّابك وكلّ من يتصفحك . وإلى الأمام ...